سلسلة أوراق من التاريخ



العرب في التاريخ

شاكر مصطفى



العرب في التاريخ
شاكر مصطفى

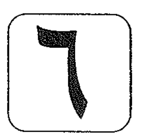
رَيـــع الـــدّار
لهيئة مدارس أبناء وبنات الشهداء في الجمهورية العربية السورية



دمشق أوتوستراد المزة ص.ب: ١٦٠٣٥ ــبرقياً طلاسدار

هاتف: ٦٦١٨٩٦١ــ٦٦١٨٠١٣ تلفاكس: ٦٦١٨٨٢٠ تلكس: ٤١٢٠٥٠

سلسلة أوراق من التاريخ



العرب في التاريخ

شاكر مصطفى

الطبعة الأولى ١٩٩٦

كلمة أولى

في هذه الغمرة من الانهيار القومي، ومن تداعي القيم الكبرى والأفكار، صرعي كأعجاز نخل خاوية، يصبح الحديث عن الماضي كالحك على الجرح. ويصبح أحياناً أشبه بعملية التعويض أو العزاء أو التخدير. وما إلى هذا ولا ذاك تقصد الصفحات التالية. لا ولا هي قصدت إلى البحث العلمي، ودراسة الحضارة العربية الإسلامية، ولا تزعم هذا إطلاقاً. فليس فيها جديد أو مبتكر، إن لم يكن بعضه أو كله مستعاراً أو من بضاعة السوق. إنها ليست أكثر من محاولة لتحويل المجهول لدى الكثرة الكاثرة من الناس إلى معلومات عامة تمازج فكرهم الثقافي. وإذا كانت ترجو أن يقرأها كل عربي فلكي تقدم له شيئاً من الزاد المعرفي عن ذاته. شيئاً عن حضارة قومه... مجرد معرفة، في كليمات قليلة. لعلها... ولعله! إنها مجرد تذكير «إن الذكرى تنفع المؤمنين».

ولن يجد القارئ شيئاً عن الراشدين ولا الأمويين والعباسيين، ولا عن الدول وأهل الدول. فذلك هو التاريخ السياسي الزائل. قصص الذبح والخصومات والحروب هي التاريخ الزائف. وما من أمة تحترم نفسها تعتبره مثلنا تأريخاً لها. وتقف عنده. فكل الأمم عندها منه ما يخجل وزيادة. التاريخ الحقيقي الباقي هو ما أضافته الأمة وتضيفه إلى تاريخ الإنسانية. هو العطاء الذي يجعل الإنسان أكثر إنسانية والبشر أكثر سمواً. وهذا ما ركزت عليه هذه الصفحات. إنه وحده الذي ينفع الناس ويمكث في الأرض. فأما الزبد السياسي فيذهب جفاء وبدداً.

والحضارات الكبرى كالشخصيات الكبرى لها طابعها المميز. ولها ما تعطيه

وما تأخذ على العنفوان . ولها المد الروحي في شرايين أهلها جذوراً في الأرض والفكر ، وهوية قومية جامعة ، وتحدياً أبياً للمستقبل... وحضارة العرب الإسلامية كذلك كانت ، أمسكت وحدها بما بين قطبي العالم ثمانية قرون وقادته على هواها ، وبقدار طاقتها ، ومدى أيديولوجيتها الهادية الإسلامية ثم أسلمت الدفة للآخرين ...

ومن التبجح الخاسر لملمة حضارة امتدت على أنحاء الأرض المعروفة ــ يومذاك ــ ثمانية قرون في بضع ومائة صفحة صغيرة . إنك كمن يجبر المارد أن يعود إلى القمقم . أو من يحاول حشر الجبال في كيس من الورق . ولكن الملامح العابرة قد تكفي العابرين .

شاكر

«العرب في التاريخ[1]»

صدقوني إذا قلت أني أشعر بالخجل إذ اضطر في هذا البلد العربي للتحدث عن حقيقة أمتي العربية وعن مكانها في التاريخ، وللعرب وراء كل حجر فيها، وفي كل عطفة أثر خالد وذكرى تضحك. صدقوا خجلي فإني أخجل لنفسي أن أناقش وأخجل لغيري أن يشك أو يجهل أو بدس أو أن يستعمله الأجنبي للشك والجهل والدس[2].

دعونا أولاً نحدد ونوضح مفهوم هذه الكلمة: (العرب) فلعل أكبر الأخطاء تنجم عن الاختلاف في المفاهيم الأولية ولن أخوض بالطبع هنا معركة جدل بيزنطي فارغ يذكرني بأولئك العلماء الذين كانوا يجادلون ويماحكون في القسطنطينية بماهية السيد المسيح وهل هو ذو جسد أم لا؟ بينما كانت مجانيق محمد الفاتح تهدم أسوار المدينة وتدخل عليهم القرن الذهبي. لن أناقش إذن كلمة أمة وما هي مقومات الأمة ولن أدخل في تلك المماحكات الأثرية التي تطلي نفسها وراء الألفاظ الغربية بالطلاء العلمي فإن جلاء الحقائق التأريخية يكفيني على ما أظن مهمة النقاش.

أقدم ذكر وجدناه لكلمة عرب في النقوش الأثرية وجد في قرقر (شمالي

---

(١) هي محاضرة ألقيت منذ زمن طويل سنة ١٩٥٠، وطبعت مرات في دمشق وبغداد والبحرين ولم أجد أن أمسسها إلّا في كلمات محدودة وأنشرها لأني قدرت أنها قد تكون خير مقدمة لهذا الكتيب.

(٢) هذه الجملة كان لها ضرورتها في تلك الفترة وقد ذهبت أسبابها.

حماة على العاصي) ويرجع تأريخه إلى سنة (٨٥٤ ق . م) أي منذ حوالي (٢٨٥٠ عام . والنقش للملك الآشوري شلمنصر الثالث يذكر فيه حملته على ملك دمشق « حدد عازر » وعلى حليفه « جندب » العربي وأنه أخذ من جندب هذا ألف جمل .

وبالرغم من أنه لا يكاد يكون ثمة شك في أن آثاراً أخرى سابقة لهذا النقش ، تذكر هذه التسمية وإن لم نكشفها بعد فإن اسم العرب وبلاد العرب وملوك العرب يظهر باستمرار منذ القرن التاسع قبل الميلاد في الآثار المختلفة لبابل وفلسطين بشكل (عربة) و (عرب) ، كما يظهر هذا الاسم في التوراة . ولكنه لم يكن يطلق كاسم بل كصفة للشعوب البدوية الرحالة بين بادية الشام وسيناء وشمال الجزيرة العربية .

وعلى هذا يدل الاشتقاق اللغوي أيضاً . فكلمة عرب وعربي كان يطلقها البابليون على سكان البادية في « غربهم » فهم عرب أي سكان الغرب (لأنه لم يكن لديهم حرف « غ ») .

وكذلك في اللغة العبرانية تأتي كلمة (عربة) بمعنى الصحراء ، ويرجع بعض العلماء كلمتي « عبر » و « عرب » أيضاً إلى أصل واحد لأن الأولى تعني في العبرانية الارتحال والنقلة . على أن كلمة عرب بدأت منذ القرن السادس قبل الميلاد تصبح اسماً علماً على ما نستدله من التوراة ، فما أقبل القرن الثالث قبل الميلاد حتى أضحينا نرى هذا اللفظ يطلق على ساكن الجزيرة العربية كائناً من كان أي صارت كلمة عرب اسماً لشعب الجزيرة .

ولكن ما أرومة هذا الشعب ؟ ومن أي فرع من العروق البشرية يكون ؟ وهل يتفق وجوده التاريخي مع وجود اسمه التاريخي ؟

يقوم مقام الجواب الصحيح على السؤال الأول لدى معظم الباحثين قولهم أن العرب من الشعوب « السامية » ويحسبون أن الإشكال قد حل بهذا الجواب المبتسر ، فما هي هذه السامية ؟ وهل هناك من عرق سامي ؟ أول من

استعمل كلمة سامي هو العلامة الألماني اللغوي (شلوتسر) سنة (١٧٨١) فقد كان يبحث في اللغات العربية والعبرانية والسريانية (وجدتها الآرامية) وفي الجعزية الحبشية فوجد وشائج كثيرة من القربى بين تلك اللغات ، وشائج كان أشار إليها الكثيرون قبله ، ولا سيما علماء اليهود الأندلسيون في القرون الوسطى ، فأراد أن يطلق على هذه اللغات اسماً مشتركاً فوجد أن التوراة تعزو في مطالع سفر التكوين جميع المتكلمين بهذه اللغات وشعوباً أخرى غيرهم إلى سام بن نوح فسمى تلك اللغات (باللغات السامية) .

وبالرغم من أن الأبحاث العلمية الحديثة لم تؤيد بل إنها نقضت صحة نسب هذه الشعوب إلى (سام) المشكوك في وجوده التاريخي وبالرغم من أن شلوتسر لم يقصد إلَّا إلى التسمية اللغوية فحسب . ولم يكن له أي علاقة بالبحث العراقي الأثنولوجي . فإن كلمة (سامي) وسامية انسحبت من المفهوم اللغوي إلى الاستعمال العراقي . ومن اللغات إلى الأقوام . وأخذ اسم « الأمم والأقوام » السامية يظهر على أقلام الكتاب بمفهوم عرقي وقد جرى هذا الخطأ نفسه فيما يتعلق بكلمتي حامي وآري وإنما هي اصطلاحات لغوية قديمة استعملها الناس خطأ بمعنى عرقي .

إذن فليس هنا من عرق أو جنس سامي فمن أي العروق يتحدر سكان الجزيرة العربية القدماء؟

لعل الأصح أن نقول هنا من أي الخلائط الجنسية قد تحدر . فليس في العالم شعب ذو عرق صاف مهما بلغ بذلك الشعب القدم ومهما طوقته العزلة ، وقد وجد الباحثون أن الجزيرة العربية أي تلك البلاد الممتدة بين جبال زاغروس وطوروس وصحراء ليبيا واليمن لم تتلق منذ مطلع العصور التاريخية حوالي القرن الثلاثين قبل الميلاد أي منذ خمسة آلاف سنة أية موجة بشرية تطغي عليها وتذيب عناصرها الخاصة بلى ! لقد مرت بأطرافها بعض الهجرات

الغربية وتركت بعض الآثار العرقية ولكنها ظلت منذ تلك القرون السحيقة إلى القرن السابع بعد الميلاد تحت تأثير جنس متشابه الملامح موحد الأصل كان يتكاثر في قلب الجزيرة العربية دوماً . ويفيض على ما حوله . وكان هذا القلب ككل الصحراوات غير المطلقة ، والمماثلة له ، أشبه بخزان بشري دائم الفيض ، ولهذا كان مصدراً لهجرات عديدة متعاقبة كانت تبدأ تجمعها وتكونها دوماً في قلب الجزيرة الأوسط فيما بين الخليج العربي ونجد والحجاز ثم تنساح على الأطراف الخصبة في اليمن والشام والعراق لتعدل من تركيبها الجنسي ، فتحفظ لها دوماً اتصالها بالأصل الصحراوي العربي من جهة ، ونسبة الدماء العربية في تكوينها من جهة أخرى ، إنا لهذا لا نزال نجد إلى اليوم خاصة أن تركيب اليمن العرقي لا يختلف عن تركيب العراق أو عمان أو بلاد الشام في غير بعض التفصيلات المحلية ، ونجد دوماً في الداخل الصحراوي من كل هذه البلاد عناصر مستطيلة الرؤوس . وعلى الجبال عناصر مستديرة الرؤوس . وفيما بين الصحراء والجبال وما بين تلك الجبال والبحر عناصر ذات رؤوس متوسطة الاستدارة ، وإنما مرد هذه الوحدة إلى أن أنحاء الجزيرة العربية قد ألف شملها وجمع فيما بينها منذ أقدم العصور التاريخية المعروفة تلك الموجات الكبرى المعروفة من البشر [١] :

١ ــ موجات ما قبل التاريخ التي يقدر العلماء أنها اندفعت إلى مصر وما بين النهرين وإلى اليمن .

٢ ــ موجة الأكاديين ما بين (٣٥٠٠ ــ ٣٠٠٠) ق . م إلى ما بين النهرين والتي تشابكت مع السومريين هناك . القادمين في الغالب من وراء جبال زاغروس .

---

(١) هذا العرض التالي غير دقيق تماماً فهناك أبحاث ودراسات لم تكتمل حوله وإنما تذكره للتبسيط ولربط موجات الهجرة بعضها مع بعض كما يجب لها .

٣ ــ موجة الكنعانيين حوالي (٢٥٠٠) ق . م إلى سورية الشمالية والجنوبية والساحلية . وتشابكت مع الحثيين القادمين من آسيا الصغرى ومع الحوريين وهما الأساس الأقدم لسكان الشام .

فمن الشمالية كان الفرع العموري الذي نزل بعد ذلك إلى ما بين النهرين وأنشأ بابل والدولة البابلية الأولى ، ومن الجنوبية كان الكنعانيون في فلسطين وأما من سكن الساحل السوري فقد سماهم اليونان باسم الفينيقيين .

٤ ــ موجة الآشوريين حوالي (٢٣٠٠) ق . م إلى شمال العراق .

٥ ــ موجة الهكسوس (العمالقة) حوالي (١٨٠٠) ق . م إلى مصر . وهي موضوع جدل في تكوينها . وقد سبقها إلى جنوب فلسطين جماعة الفلسطى القادمة من كريت .

٦ ــ موجة الآراميين (١٥٠٠) ق . م إلى سورية الداخلية وهي الهجرة الكبرى التي كونت مع الكنعانيين الأساس العرقي السكاني لبلاد الشام .

٧ ــ موجة العبرانيين (١٣٠٠) ق . م إلى فلسطين وهي موجة صغرى لقوم موسى قدمت من مصر وأخذت لغتها عن الآرامية ، وثم أبحاث تجعلها في الأصل حثالة شعوب ، وهذه الهجرة أضحت في الدراسات موضع شك كبير .

٨ ــ موجة المعينيين والسبئيين حوالي (١٢٠٠ ــ ٢٠٠) ق . م من اليمن إلى الحجاز وجنوب فلسطين ، وإلى جنوب العراق وإلى شمال الحبشة .

٩ ــ موجة الأدوميين فالأنباط بين (٨٠٠ ــ ٤٠٠) ق . م إلى جنوب الشام (شمالي العقبة) .

١٠ ــ موجة اليمنيين الغساسنة والمناذرة من (١٠٠ ــ ٥٠٠) ق . م إلى الشام والعراق .

١١ ـــ موجة العرب المسلمين من (٦٠٠ ـــ ٧٠٠) م من نجد والحجاز إلى الهلال الخصيب وإلى أواسط آسيا وشمالي إفريقية وإلى الأندلس .

هذا إلى موجات أخرى تسربت تسرباً ولأقوام صغرى أنشأت على محور الفرات الأوسط وفي سهول الخابور (تينوى) وهضاب منطقة حلب عدداً من المدن الدول مثل ماري وإيبلا وأوغاريت (الفينيقية) وإمار وغيرها . والأرجح أنها فروع من الموجات التي عاصرتها . وهذه الشعوب جميعاً هي ما يسميه الباحثون باسم الشعوب السامية ويسمون هجراتها باسم الهجرات السامية وسنعرض هنا إلى نقطتين:

أولاهما : وجه القربى بين هذه الشعوب وهي قربى واشجة .

ثانيتهما : الاسم الذي نطلقه عليها فالواقع أن اسم الساميين خاطئ والوجود التاريخي لشعوب الجزيرة العربية أقدم بكثير حتى من كلمة عرب ، هذا الاسم القديم الذي أطلق عليها .

فأما قربى هذه الشعوب فتظهر في أمور كثيرة أبرزها :

١ ـــ القربى اللغوية : فجذور الأفعال في لغاتها ثلاثية ثم إن للزمن فيها صيغتين فقط صيغة الماضي وصيغة المضارع . وتصريف الأفعال متشابه عدا أن أصول كثير من المفردات ومنها الضمائر والأسماء الدالة على القرابة الدموية والأعداد وبعض أسماء أعضاء الجسم تتشابه تشابهاً يكاد يكون تاماً . أثبتت ذلك دراسة ما يزيد على ثلاثين ألفاً من الرقم المكتوبة بالمسمارية بمختلف اللغات والتي عثر عليها في ماري وإيبلا ونينوى وأوغاريت مقارنة بالآرامية والعبرية والعربية .

٢ ـــ الأنظمة الاجتماعية والسياسية : تكاد تكون واحدة . فتركيب الأسرة وأنواع الزواج ونظام تعدد الزوجات ونظام الأمومة والأبوة فيها أمور مشتركة ، كما أن مفهوم العشيرة وتركيبها السياسي والاقتصادي وروابطها في الحلف والجوار وأهمية الدم في الأحلاف ونظام الحكم المشيخي فيها والتشاريع السامية الأولى جميعاً متصل بعضها ببعض .

٣ ــ المفاهيم الدينية والعبادات في الساميين جميعاً واحدة ولدى هذه الشعوب وحدها ظهرت النبوات والديانات السماوية .

٤ ــ الخصائص العرقية كما لاحظنا مشتركة .

٥ ــ الخصائص النفسية من قوة في المخيلة وبساطة في المفاهيم ومادية في الصور واشتطاط في الفردية وميل إلى القسوة أحياناً تظهر بأشكال متفاوتة القوة لدى جميع الساميين .

وعلى هذا فيكاد يكون من المفروغ منه أن هذه الشعوب جميعاً واحدة الأصل . ولكن اسم « الساميين » الذي نطلقه عليها يضطرنا لمناقشته بعض المناقشة فهو أول كل شيء غير صحيح علمياً . ثم أنه اصطلاح لغوي ، وأصح منه أن نستعمل كلمة « عرب » وذلك لأسباب عدة :

١ ــ كلمة عرب هي أقدم كلمة نعرف أن القدماء قد أطلقوها على الشعوب البدوية في الجزيرة العربية ، هذه الشعوب التي هي مادة وأصل كل المزارعين وذوي الحضارات من سكان الأطراف الخصبة في اليمن والشام والعراق وعمان .

٢ ــ كلمة سامي ليست أكثر من مجرد اصطلاح ونصيبها من الحقيقة ومن الانطباق على الواقع بقدر نصيب غيرها من التسميات الأخرى سواء بسواء . وثمة شك كبير في صدق تاريخها .

٣ ــ كلمة سامي إنما هي اصطلاح لغوي ويخطىء من وجهة النظر الإثنولوجية (العرقية) وكلمة عرب تقوم مقامه في الدلالة الإثنولوجية على الخلائط العرقية التي كونت شعوب الجزيرة سواء في قلبها البدوي أو على أطرافها الزراعية .

٤ ــ العرب ليسوا فقط الفروع الأخيرة من هذه الشعوب ولكنهم أيضاً أعظمها تاريخاً وأطولها عهداً . ونعرف بالتأكيد أن حضارة اليمن التي تعود إلى سنة (١٣٠٠) ق . م هي حضارة عربية وأن حضارة الأنباط

بعدها بين (٤٠٠) ق . م و (٢٠٠ م) هي للعرب وكذلك حضارة تدمر وحضارة غسان وبني لخم وحضارة الإسلام العظمى بعد كل ذلك

٥ ـــ يضاف إلى هذا التاريخ الطويل الذي يعود إلى ما قبل الآن بـ (٣٥٠٠) سنة أن اللغة العربية هي كما يقرر العلماء أقرب اللغات لما يسمونه باللغة السامية الأصلية أي اللغة التي تفرعت عنها اللغات السامية المتعددة .

أخلص من كل هذا إلى القول أني أفهم من كلمة « عرب » جميع تلك الشعوب القديمة التي بدأت تكونها في قلب الجزيرة العربية ولما لم تستطع بناء حضارة لها على الرمال الداخلية فقد انساحت على الأطراف الخصبة من الشام والعراق واليمن وأحياناً في مصر وبنت هناك حضاراتها المتتالية ، ويدخل في ذلك أوغاريت رأس شمرة كما تدخل مأرب ومكة وسومر ونينوى ودمشق والقاهرة . ويبوس (القدس) . وتشمل أمجاد العرب بجانب يسوع الناصري ومحمد بن عبد الله القرشي هانبيال وفيليب العربي وحمورابي وحدد وسرجيس الرسعيني وأبو لودوروس الدمشقي والمأمون وبلقيس والفارابي وعمر على السواء .

وعن هؤلاء الذين هم مني ، وعن أرضهم التي هي أرضي وعن تاريخهم الذين هو تاريخ أمتي سأتكلم ، وإن أعجب فعجبي لهؤلاء الذين يحاولون أن يكونوا علميين وعلميين جداً كيف يستطيعون الفصل بين أوغاريت والقيروان وبين بابل ومكة ومأرب والقدس وكلها من بناء أبناء هذه الصحراء التي إن تكن قد أجدبت بالنبت والثمر ، فقد أخصبت بالنبات البشري ، وكثيراً ما أتساءل أي الحدود يضعونها بين محمد بن عبد الله ويسوع بن مريم وإنما رسالة الأول صلة وتصديق لرسالة الآخر .

لقد يبدو أني أجرأ كثيراً على الواقع التاريخي لكنهم سيجدون بعضاً من مبررات تلك الجرأة وأدلتها في القسم الثاني من هذا الحديث . هذا رغم يقيني الثابت من أن الإيمان بالقومية العربية لا يحتاج كثيراً إلى ذلك التاريخ الأثري القديم وإذا أنا أثرته فذلك لأمرين :

أولهما : أن بعض المتعالمين يحاول أن يستغل جهل الناس بالآثار والتاريخ القديم ليبني حدوداً وقوميات حيث لا حدود ولا قومية وليصطنع التفرقة في قلب أمة واحدة كبرى يريد لها الأجنبي أن تتمزق مسوخاً من أمم صغرى منقرضة . وآية ذلك أن علماء الغرب يصرون على دراسة كل موجة من الأمواج السابقة على حدة وتحت اسم خاص بها كأن لا علاقة لها بما سبقها من الأقوام وما لحق . وهنا الخطأ الأكبر . وإنما أمتكم أمة واحدة .

ثانيهما : أن هذا التاريخ القديم خاصة قد ينفع في زرع الثقة بممكنات هذه الأمة العربية (خير أمة أخرجت للناس) وفي بيان ترابط قديمها وحديثها وانسجام موقفها من العالم .

وأول ما يلاحظ على العرب في التاريخ أنهم :

١ ـــ قدماء بل وقدماء جداً ، والتاريخ العربي يبدأ مع بدء العصور التاريخية : بل تبدأ به العصور التاريخية ، وإذا كان العلماء يعدون اليوم أن أقدم بقاع الحضارة والتاريخ في العالم هي بقاع ثلاث : وادي النيل الذي ظهرت فيه الأسر الأولى من الفراعنة وما بين النهرين الذي أوجد الحضارة السومرية وحوض السند الذي ظهرت فيه مدن هاربا وموهنجودارو . وبعضهم يضيف إليها منطقة (أناو) مما وراء النهر في تركستان (ولا تعطي أقدم هذه الحضارات عمراً أبعد من القرن الخامس والثلاثين ق . م) فالباحثون يكادون يوقنون أن الجزيرة العربية في العصور السابقة للتأريخ قد أرسلت إلى ما بين النهرين وإلى مصر موجة أو موجات من السكان السابقين للعهد السومري ولعهد الأسر الفرعونية وأن حضارة أولئك الساميين القدماء هي التي مهدت لظهور الحضارات التالية . بل إن ثمة رأياً حديثاً يرى أن جنوب الجزيرة العربية قد عرف تلمسات الحضارة الأولى قبل أن يعرفها وادي النيل ، وحوض الرافدين . وأنه من تلك المنطقة أو من منطقة متوسطة بينها وبين تينك النقطتين ظهرت

شعوب واحدة أهلت المناطق الثلاث . وأبدعت حضارات متشابهة (وقد عرفت هذه النظرية لدى العلماء بنظرية المثلث الحضاري) . وهذا يعني أن دخول العرب في ضوء التأريخ لا يمثل بالنسبة إليهم بداية عهد جديد بقدر ما يمثل نهاية تطور متصل الرقي خلال أجيال طويلة متتابعة سابقة . ولنضف إلى هذا أن مركزين من المراكز الأربعة التي ذكرنا بدء الحضارة فيها هي في أرض العرب .

٢ ـــ إن حضارات (العرب) ليست قديمة فحسب ولكنها مستمرة الإبداع أي تتصف بالصفة الحركية (الديناميزم) فالتاريخ العربي الذي بدأ مبكراً جداً بدءاً لم ينازعه فيه أي تاريخ آخر ظل منذ الألف الثالثة قبل الميلاد على الأقل يسجل الحضارة تلو الحضارة دون انقطاع مدة خمسة آلاف سنة ولو وضعنا الخط البياني للتاريخ العربي لوجدناه منحنى كثير القمم يختلف توتره أي تفاوت نهاياته العظمى والصغرى حسب الزمن . ولكنه غير منقطع . وإذا خفت وانخفض في بقعة من الجزيرة ظهر في بقعة أخرى . وهذا الاستمرار المتجدد للوجود العربي يدل على أن الذات العربية ذات ممكنات حية تجعلها على استعداد دائم لأن تلتهب وتنطلق لدى مساسها بأي سبب ديني أو اقتصادي أو سياسي ولا يكاد يماثل التاريخ العربي في هذه الحركة (الديناميزم) أي تاريخ لأية أمة أخرى في منطقة المتوسط أو غيرها .

فالتاريخ اليوناني لم يحقق سوى حضارة واحدة والتاريخ الروماني انتهى بانتهاء روما وتاريخ إيران إنما بدأ في المائة السادسة والخامسة ق . م فقط ثم اندمج بتاريخ العرب منذ القرن السابع الميلادي وأما التاريخ الصيني فإنه إنما بدأ بعد تاريخ العرب بعشرة قرون أي : في القرن الخامس والعشرين ق . م وتاريخه منذ القرن الخامس عشر كتاريخ العرب يخضع للغرباء المغول ، والتاريخ الهندي مضطرب المنازع والشعوب لا يهبنا ذلك الانسجام الذي نجده في تاريخ

العرب . عدا أن حضارة كل من الصين والهند لا تكون أساساً من أسس الحضارة العالمية كما تكون حضارات العرب بسبب عزلتهما وبعدهما .

وقد أسمع أحياناً تلك الكلمة التي قالها مرة الأستاذ نبيه أمين فارس من أن العرب لم يعرفوا الحضارة والرقي إلّا حين دخلوا في المتوسط واستغلها بعض المتفيهقين ليحصر المتوسط كله في سورية فلما أعياهم أمر العراق أعطوه اسم سورية أيضاً ونسوا كما نسي صاحب الكلمة أن للعرب حضارة في اليمن امتدت عشرين قرناً متصلة (ما بين ١٤٠٠ ق . م إلى ٦٠٠ م) وأن للعرب فيما بين اليمن وبلاد الشام في المثلث الممتد بين الحجاز وسيناء ودومة الجندل والذي يضم مدين وتيماء وغزة حضارة منسية لم يدرسها أحد ، وإن أشار إليها الكثيرون ، كانت دوماً وسيطة بين حضارات الشام وحضارات عرب الجنوب وكان مرفؤها غزة هذه المدينة القديمة العروبة جداً . وهذه الحضارة المنسية بالذات هي التي أوجدت للعالم الأحرف الهجائية التي نشرها على العالم العرب الفينقيون بعد أن طوروها ووصلوا بها الغاية في أوغاريت .

وقد شهد العرب في تاريخهم الطويل كثيراً من الأمم حولهم تنهض وتكبو وتظهر ثم تموت . وهم على حيوتهم المتصلة حتى حققوا وثبتهم العظمى في العهد الإسلامي الذي هو أقرب وثبة عربية إلينا في الزمن وأوسع وثبة للعرب في الألق والإبداع والمكان .

٣ ــ والعرب بعد هذا وذاك ما عرفهم التاريخ إلّا عمرانيين إنشائيين وتاريخهم في مجموعه إيجابي لا سلبي وبان لا مخرب . وشهرة تاريخهم ليست بمقدار ما أراق من الدماء ولكن بمقدار ما بنى وما ابتكر وما قدم « لسوق الإنسانية » (كما يقول طاغور) بعكس كثير من الأمم الأخرى التي شاركتهم في الشروط الطبيعية وفي الوجود التاريخي أي تكونت مثلهم في مناطق الصعوبة أولاً ثم خرجت مثلهم من مجاهل صحاريها أو من مناطقها الفقيرة إلى مناطق الزراعة والاستقرار الحضري ومن مستوى

بسيط من الحياة إلى مستوى مدني أعلى منه وأشد تعقيداً . ولو قارنا التاريخ العربي بتواريخ الأمم الأخرى لاستبان لنا ذلك كرعشة الضحى : فالمغول خرجوا من صحارى منغوليا في موجتين : الأولى في القرنين الرابع والخامس للميلاد إذ قاد آتيلا شعبه (الهون) إلى الغرب فجر معه الدمار والخراب والذعر حتى أورلئان من فرنسا وكان يطرب حين يسمع أنهم لقبوه : « نقمة اللّه » والموجة الثانية في القرن الثالث عشر حين أخرجهم جنكيزخان فدرس بهم حضارة العرب في بغداد ووصلت ذؤبات موجتهم حتى أواسط أوربا والإدرياتي وما كانت هجرتهم سوى موجات إفناء للجنس البشري من أمثلتها : ما جرى لبخارى إذ ذبح أهلها جميعاً في السهل المجاور لها ويقدرون بمليون ونصف المليون وليس تغيب عن أذهانكم أيضاً ذكرى أنهار الحبر والدماء التي أريقت في بغداد حين وصل هولاكو بمغوله إليها .

وكذلك الشعب التتري : خرج من بوادي تركستان في القرن الخامس عشر يقوده زعيمه الأعرج تيمورلنك فخرب إيران والشرق العربي كله ومهد بذلك لسقوطه في يد العثمانيين .

ومثل ثالث أولئك البرابرة الجرمن الذين هجموا في القرن الخامس الميلادي على حضارة روما الباذخة وغادروها حطاماً . ولم يستطيعوا بناء حضارة راقية لهم إلَّا بعد أن مضى عليهم ألف سنة . ومثل رابع تلك الموجة من الإغريق الذين خرجوا من جوف أوربا الحجري في القرن العاشر ق . م . فهدموا حضارة كريت وطراودة ، ولم يبدأوا بناء حضارتهم الخاصة قبل أن تمضي عليهم أربعة قرون .

أما العرب فقد خرج الأكاديون منهم فتبنوا حضارة سومر وأخذوا عنها الكتابة الإسفينية والزراعة وبناء البيوت والقانون . والفينيقيون واليمانيون على السواء اقتبسوا الأحرف عن عرب سيناء فأعطاها الأولون للعالم وأعطاها

الآخرون للأحباش . الآراميون تركوا لنا حتى اليوم هذه المدن التي نعيش في سورية الداخلية بها منذ شمأل عند حلب إلى قرقر وحماة ودمشق وبيت شان (بيسان) ومعون في الجنوب .

وقل مثل ذلك عن عرب اليمن وعرب الحجاز وعرب غسان وعرب الحيرة وعرب تدمر وأخيراً عرب محمد بن عبد الله الذين ما كان قد مضى عليهم ثلاثون سنة في الشام والعراق ومصر حتى كانت حضارتهم قد بدأت بالظهور والتوطد وحتى كانوا قد بنوا أربع مدن جديدة : البصرة والكوفة والفسطاط والقيروان . ثم استمروا في البناء حتى أقاموا فيما بين الأندلس وإيران ٤٩٠ مدينة إسلامية جديدة .

٤ ــ والعرب في التاريخ قد حملوا رسالة خالدة هي رسالة السلام البشري ، ولسنا نستطيع أن نحيط بالعوامل التي دفعت العرب إلى حمل هذه الرسالة ولعل قيامهم في جزيرتهم على العدوة بين الشرق والغرب واحتلالهم المكان الأوسط بين مختلف الحضارات جعلهم المكان الهندسي لقيام الأفكار الإنسانية الشاملة ، وقد اتخذت هذه الرسالة لديهم أشكالاً عدة لا شكلاً واحداً في الظهور : بدأت تتلمس طريقها إلى النور بشكل مبتكرات تمهد للتفاهم البشري كابتكار الكتابة في سيناء وأوغاريت ونقلها إلى العالم ووضع الحساب والقانون على يد البابليين لحسم كل خلاف ثم ظهرت بشكل أوضح وأقوى في تلك الصلات التجارية التي عقدها الفينيقيون والآراميون واليمنيون والأنباط وأصحاب تدمر والقرشيون بين مختلف بقاع الأرض للتخفيف من عزلة الجماعات البشرية وللوساطة بين حضاراتها وفتح النوافذ بينها ليطل بعضها على بعض .

على أن أروع شكل ظهرت به هذه الرسالة هو الشكل الديني إذ وجد لدى العرب مفهوم (الله) رب العالمين لا رب قوم دون آخر وبشروا في

الديانات التي آمنوا بها بالسلام والمحبة بين البشر . وهكذا انتقل الإله (يهوه) من إله لبني إسرائيل إلى إله لكل مؤمن به كما أضحى إله العطف الأبوي والرحمة . ثم جاء السيد المسيح فبشر بالسلام والعطف « المجد لله في العلى وعلى الأرض السلام وفي الناس المسرة » ثم بلغت الدعوة قمة قوتها في الإسلام وفي اسمه وفي الآيات القرآنية التي تفسر معناه تتجلى روح الرسالة المحمدية في السلام ﴿ وأنيبوا لربكم وأسلموا له ﴾ ، ﴿ فقل أسلمت وجهي لله ﴾ ﴿ وله أسلم من في السموات والأرض طوعاً أو كرهاً وإليه يرجعون ﴾ ﴿ فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون ... ﴾ إنها ﴿ ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين ﴾ .

وهكذا يجتمع السلام الديني بين العالمين جميعاً لأن الله ليس رب بلد ولا قوم ولكنه رب العالمين خالق الجميع فلا مكان محدوداً لأتباعه : « إنما المؤمنون إخوة » ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ . والله يرعى الخلق حيث كانوا وفي القرآن الكريم : ﴿ ما يكون من نجوى ثلاثة إلّا هو رابعهم ولا خمسة إلّا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلّا هو معهم أين ما كانوا ﴾ وفي الإنجيل « حيث اجتمع اثنان أو ثلاثة تحت اسمي فأنا بينهم » .

٥ ـــ وللعرب تأريخ آسر قوي النفس لم تتمالك رشدها ولم تحفظ نفسها أمامه كثير من الأمم فاستعربت كلياً (كما حدث للبربر) أو أقرب إلى الكلي (كما حدث للفرس) . ويجب أن لا نفهم هنا من التاريخ وجهه السياسي فحسب ولكن وجهه الحضاري العام . إنه عند ذلك فقط ينفتح أمامنا أفق الأمثلة والأدلة على مصراعيه ، فنذكر بين ما نذكر أن اللغة الآرامية والكتابة التابعة لها ظلت لغة السياسة والتجارة في العالم القديم (أي كالإنكليزية اليوم والفرنسية بالأمس) وترك الناس لغتهم إليها ما يزيد عن ألف سنة (بين المائة الثامنة أو السابعة قبل الميلاد والثالثة إلى الخامسة بعد الميلاد) وأن الديانة المسيحية قد أخذتها روما وأوربا من ورائها ، عن

أرضنا هذه ومن روحنا نحن ، مهملين آلهتهم الخاصة وما نمق الإغريق من أساطير ... وأن الفرس ــ على قوة تاريخهم وطابعهم ــ ظلوا في دوامة التاريخ العربي خمس مائة سنة قبل أن ينفصلوا عنه ومع هذا فما يزال لديهم منا الدين الإسلامي والكتابة العربية . والبربر في شمالي إفريقية انصهروا نهائياً في التاريخ العربي فتاريخهم قطعة من تأريخنا ولغتهم هي لغتنا ودينهم من لدنا وأمجادهم وآلامهم منذ (١٣٠٠) سنة إلى اليوم هي أمجادنا وآلامنا أيضاً .

وهل أذكركم بعد بالعثمانيين وتبنيهم للحضارة العربية ؟ أم أذكر من كان قبلهم من الترك ، من سلاجقة وغير سلاجقة ؟ أم أذكر خانات المغول سواء في استراخان من روسيا أم في دلهي بالهند الذين دخلوا في الإسلام وتبنوا تاريخ العرب وحضارتهم ووصلوها بصلة جديدة ؟

٦ ــ والعرب أخيراً ذوو تاريخ واحد متصل موحد الروح ويتجلى ذلك أكثر ما يتجلى في نواح ثلاث :

آ ــ فيما أبدع العرب من ديانات . فأساس التصورات الدينية عند جميع العرب متطابق متشابه : فقد عبدت الكواكب من شمس وقمر ونجوم في العراق واليمن ومصر والشام على السواء في مفاهيم متقاربة : كان القمر فيها أباً أحياناً وأماً أحياناً أخرى وكذلك الشمس . وقام عشتار (الزهرة أو فينوس) مقام الابن وكان هو نفسه (ود) عند الجاهليين . كما عبد العرب في كل مكان الأصنام المتشابهة . وهبل الجاهلي ، الذي تعرفونه ، ليس شيئاً آخر سوي بعل البابلي وإله وبل الكلداني وهبعل الفينيقي . ومناة الجاهلية هي مامناتو البابلية ومانتو اليمنية ومثل ذلك عشتار وعشتروت وعشتر والعزي البابلية وعزين ...

فإذا غادر العرب الوثنية ظهرت لديهم النبوات . والنبوة خاصة عربية لم

يتميز بها أي شعب غير العرب، والمفاهيم الدينية التي أوجدها الأنبياء جميعاً متشابهة ومتصلة بعضها ببعض.

فالكون عند العربي إنما نشأ عن كلمة من كلمات الله وفي القرآن الكريم: ﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾ وفي الإنجيل «في البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله».

والتصور الديني للوجود عند العرب يفصل هذا الوجود إلى عالمين لا سبيل لاجتياز الهوة التي تفصل بينهما: عالم الله العظيم المهيمن الجبار وعالم الإنسان المخلوق الضعيف. وإذا كان لا بد من اتصال العالمين بعلاقة العبادة فلا بد من وسيط أو وسطاء كثيرين يتوسطون بين الله والإنسان وينقلون إلى الثاني أوامر الخالق الأعلى. ومن هنا جاءت فكرة النبوة وظهر الأنبياء والرسل الأكرمون.

ثم إن فكرة العرب عن الإله من أصفى وأبسط ما تعرف الأديان: إله واحد قادر غني، رحيم ذو انتقام مجرد عن هذه المادة الأرضية وليس فيه ذلك التعدد ولا تلك المادية التي تعرفها آلهة اليونان أو الهند، ولقد شعر العرب بوضوح بوحدة الروح الدينية فيهم فقد صرحوا أن الدين واحد منذ إبراهيم في كلدة إلى السيد المسيح في فلسطين إلى محمد بن عبد الله ﷺ في الحجاز. وأنها رسالة واحدة يتمم اللاحق منها السابق ويحيل المتأخر منها على المتقدم فرسالة النبي القرشي تبدأ بصحف إبراهيم: ﴿إن ذلك في الصحف الأولى. صحف إبراهيم وموسى﴾ وتتمم رسالة السيد الناصري ﴿مصدقاً لما بين يديه من التوراة والإنجيل﴾.

﴿الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل﴾.

ب ــ ووحدة الروح تظهر مرة أخرى في إنتاج العرب الفكري. فجميع الشعوب العربية قد اشتهرت-بالشعر وجميعها عرف بالخيال الواسع ذي

الصور المادية. وكم هناك من صلة واشجة عميقة بين قول التوراة في نشيد الإنشاد: «ها أنت جميلة يا حبيبتي عيناك حمامتان من تحت نقابك. شعرك كقطيع معز رابض على جبل جلعاد... شفتاك كسلكة من القرمز. خدك كفلقة رمان... عنقك كبرج داوود المبنى للأسلحة. ألف مجن علق عليه كلها أتراس الجبابرة... ثدياك كخشفتي ظبية توأمين يرعيان بين السوسن...».

أي قربى قوية بين هذا وبين تشابيه امرئ القيس في حبيبته أو فرسه وصور الأعشى وطرفة والحارث بن حلزة المعروفة: من عيون المها وما إلى ذلك. ثم إن العرب جميعاً يفتتنون باللفظ. وللكلمة عندهم فعل السحر وأنهم لهذا السبب ابتكروا السحر في بابل وفي مأرب ولهذا كانوا يسمون اللفظ البليغ بالسحر الحلال، أو لم تكن معجزة محمد بن عبد الله ﷺ القرآن والقرآن وحده؟

ج ـــ وتظهر وحدة الروح مرة ثالثة في وحدة الإنتاج والعمل الذي قام به العرب خلال التاريخ فجميع الحضارات التي قامت لديهم من الكنعانية والفينيقية إلى الآرامية إلى العمورية إلى التدمرية واليمنية والحجازية ثم الإسلامية هي حضارات تجارية، بمعنى أنها قامت على أساس التنظيم التجاري وكان الذين بنوها من التجار، أو لسنا نذكر أن رسول الله وعمه وآله جميعاً كانوا تجاراً وجميع الخلفاء الأوائل كانوا كذلك؟ أو ليس هذا نفسه كان قدر بلقيس في اليمن وزنوبيا في تدمر والحارث ملك النبط في بطرا؟ أو لم يترك ذلك أثره الواضح في عقلية العرب نفسها فأضحت عقلية تجارية؟ إنا لنستدل أحياناً على ذلك بالكثير من الآيات القرآنية: ﴿أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم﴾ ﴿لا تلهيهم تجارة أو بيع عن ذكر الله﴾، ﴿هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم تؤمنون بالله﴾ ﴿وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها وتركوك

قائماً قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة ﴾ . وبعد فهؤلاء هم هم العرب . أما ماذا قدموا للإنسانية فشيء من الخير الكثير ، دعوني أُلملمه في النقاط التالية :

في الحياة الدينية : الأديان السماوية الثلاث التي يدين لها بالزاد الروحي نصف البشرية منذ ألفين من السنين على الأقل .

في الحياة الاقتصادية : أهلوا الأراضي وأجروا فيها المحاريث وبنوا بها القرى كما قاموا بالوساطة التجارية الدائمة بين الأمم ووصلوا الحضارات بعضها مع بعض مدى العصور المتطاولة ورغم العواصف السياسية التي كانت تعصف بهم أو من حولهم . كما أمنوا خطوط المواصلات الدائمة بين مشرق الأرض ومغربها وابتكروا لذلك : العجلة بأرض بابل والسفينة على الساحل الشامي واليمني . فمنهم أول من ساق مركبة في البر وأول من ضرب وجه البحر بمجداف للرحلة إلى عالم بعيد .

في الحياة الاجتماعية : قدموا للناس أول المجموعات القانونية التي عرفها الناس ونعرف منها مجموعتين فقط مجموعة أور من الألف الثالثة ق . م ومجموعة حمورابي في مطلع الألف الثانية ق . م أيضاً . وثمة مجموعة ثالثة تظهر في الساحل السوري . كما أنشأوا الأول مرة الحياة المدنية الراقية وفيهم ظهرت أول مدينة عالمية (بابل) كما ظهرت فيما بعد بغداد . وليس يعد العالم القديم والوسيط من المدن العالمية غير هاتين المدينتين ، سوى روما .

في الحياة الفكرية : كفى العرب أنهم أول من حاول التعبير عن فكره بكتابة : في الخط الإسفيني (المسماري) ببابل ثم أنهم أول من ابتكر الحروف الهجائية في أوغاريت وسيناء وأول من أعطاها للعالم عن الساحل السوري . هذا إلى ابتكارهم الحساب وخاصة ابتكارهم « الصفر » وإلى مفاهيمهم وصورهم الفلكية وتقاسيمهم الزمنية التي ما تزال إلى اليوم أساس المفاهيم والصور والتقاسيم للفلك .

وأما في الحياة السياسية أخيراً: فأوائل مؤسسي الدول منهم وهم الذين شرعوا للناس طرائق الحكم فيما بين النهرين وفي مصر. وإذا أنا ذكرت لكم إمبراطورياتهم الأولى فعلي أن أذكر دون شك أنهم أمة من أمم أربع شكلت بين العصور القديمة والوسطى أعظم إمبراطوريات أربع: الفرس في عهد داريوس والهلينيون في عهد الإسكندر والرومان بين عهد أغسطس وتراجان والعرب بين عهد عمر والرشيد.

وعلينا أن نذكر في الوقت نفسه أن الإمبراطورية العربية كانت أطولها عهداً وأوسعها أرضاً إذ دامت بين القرنين السابع والخامس عشر وامتدت ما بين نهر السند وأطراف بامير وبحر أورال إلى بحر الظلمات وجبل البرانس.

وبعد

صدقوني أني إذا قلت أشعر بالفخر من جهة بأني عربي وبالخجل الشديد إذ أضطر في هذا البلد العربي للتحدث عن حقيقة أمتي العربية وعن مكانها في التاريخ وللعرب وراء كل حجر فيها وفي كل عطفة أثر خالد وذكرى تضحك.

بلى! إننا أمة عريقة مبدعة. وذات رسالة خالدة في العالمين. بهذا نؤمن. ومن كانت عنده ذرة من الإيمان وقال للجبال تزحزحي من مكانك تزحزحت!

يبقى فقط أن يكون الأحفاد جديرين بأولئك الأجداد!

« مراحل في التاريخ العربي السياسي »

خلاصة للاطلاع والاستئناس

في القرن السادس الميلادي (قبل الهجرة) كانت بيزنطة إمبراطورية الروم تسيطر من القسطنطينية على معظم حوض البحر الأبيض المتوسط . والفرس الساسانيون على العراق وما وراءه إلى الشرق من عاصمتهم المدائن .

بعد الثلث الأول من القرن السابع للميلاد بدأت الفتوح الإسلامية (سنة ٦٣٢/ ١٠ هجرية) . فأنهت دولة الفرس واقتطعت الأجزاء العربية كلها من الدولة البيزنطية .

وذلك في عهد الخلفاء الراشدين الذي انتهى سنة ٤٠ هـ .

اعتباراً من سنة ٤٠ هـ وحتى سنة ١٣٢ هـ/٦٦١ ـــ ٧٫٥٠ ميلادية قامت الدولة الأموية من السفيانيين أولاً (معاوية ويزيد ومعاوية الصغير) ثم من المروانيين (عبد الملك وأولاده ثم أحفاده حتى ابن أخيه مروان بن محمد) .

في العهد الأموي جرى فتح الأندلس سنة ٧١١م وفتح تركستان والسند . أيام الوليد بن عبد الملك وبنى الجامع الأموي والحرم النبوي وقبة الصخرة والمسجد الأقصى وبنيت مدن إسلامية عديدة منها شيراز وواسط والرملة والقيروان وسجلماسة .

ما بين سنة ١٣٢ هـ و سنة ٢٤٧ هـ (٧٥٠م ـــ ٨٦١م) قامت خلافة

بني العباس في المشرق حتى مصر ولها نفوذ في إفريقية (تونس) تمثله دولة الأغالبة منذ عهد هارون الرشيد (١٧٠ هـ ـــ ١٩٣ هـ) وقد استقلت عنها دولة الأندلس (منذ سنة ١٣٧ هـ) بزعامة عبد الرحمن الداخل وشكلت إمارة منفصلة واستقلت عنها في أقصى المغرب دولة الأدارسة كما استقلت عنها في المغرب الأوسط دولتان أنشأهما الخوارج. (الرستمية والمدرارية). الدولة الأموية كانت تضم كل العالم الإسلامي المفتوح وكانت الدولة الوحيدة والعظمى في العالم وكانت تعتبر كل حد وصلت إليه منطلقاً جديداً لها. أما العباسية فبقيت واحدة من الدول الإسلامية وإن تكن كبراها. وكانت سياستها المحافظة على حدودها ما أمكن ذلك. فتوحها كانت خاصة فيما وراء النهر (تركستان).

في النصف الثاني من القرن الثالث (منذ حوالي سنة ٢٥٠ هـ/٨٦٤ م) بدأت تظهر ضمن الدولة العباسية دول منقطعة تابعة لها كالدولة الطولونية في مصر والطاهرية في خراسان واليعفرية في اليمن والسامانيون في خراسان وما وراء النهر (٢٠٤ هـ ـــ ٣٩٥ هـ/٨١٩ ـــ ١٠٠٥ م) والصفاريون في سجستان (٢٤٣ ـــ ٩٠٠ هـ/٨٦٧ ـــ ١٤٩٥ م).

في القرن الرابع للهجرة (١٠ م). كان أوج الحضارة العربية الإسلامية سواء في المشرق أم في مصر والأندلس ظهرت في العشرينيات والثلاثينيات من هذا القرن الدولة الأخشيدية في مصر ودولة بنى حمدان في الموصل وفي حلب. وفي أواسط القرن دخل البويهيون بغداد ليسيطروا على الخلافة العباسية. لكن قبل أن يبزغ هذا القرن الرابع كانت قد ظهرت في إفريقية (تونس) الخلافة الفاطمية ولم يلبث أمراء الأندلس أن اتخذوا بدورهم لقب الخلافة فكان في العالم الإسلامي ثلاث خلافات: أموية في الأندلس وعباسية في المشرق وفاطمية بينهما في الوسط ما لبثت أن انساحت إلى المشرق فاحتلت مصر والشام والحرمين. وقلصت النفوذ

العباسي أكثر فأكثر إلى الشرق وإلى إيران . ولكن الحضارة العربية الإسلامية كانت في ذلك القرن حضارة جميع العالم المتمدن . وتوسعت الدولة الإسلامية في أفغانستان والهند مع الغزنويين .

في القرن الخامس للهجرة (١١ م) . ومنذ العشرينيات منه بدأ الانقلاب الإسلامي الذي شمل الشرق والمغرب . ففي المشرق تحرك البدو السلاجقة مما وراء تركستان وهم من الترك الغز فدخلوا بعد تركستان إلى شمال إيران وتمركزوا في أذربيجان وانساحوا منها في إيران وأرمينية وآسيا الصغرى والعراق والشام مكونين طبقة جديدة من الحكام . وفي المغرب خرج المرابطون من جنوبه نحو الشمال فاحتلوا معظم شمال إفريقية . أما الأندلس فقد تمزقت خلافتها في هذا القرن بين ملوك الطوائف ففي كل مدينة أمير ومنبر مما أطمع الأسبان بهم فاستجاروا بالمرابطين الذين أنجدوهم وما لبثوا أن أزاحوهم . ومنذ أواسط هذا القرن (الخامس) أخذ الطمع الأسباني والأوربي في البلاد الإسلامية شكل الصليبيات .

في القرن السادس للهجرة/١٢م انتقلت الصليبيات الأوربية إلى المشرق فاحتلت الساحل الشامي وأسست الإمارات فيه . وتزعم المقاومة لهم الأتابك زنكي وابنه نور الدين ثم صلاح الدين الأيوبي الذي أنهى الخلافة الفاطمية . وترك ما بقي لأسرته من بعده . وقبل أن يصبح نصر صلاح الدين نهائياً على الصليبيين هبت من المشرق عاصفة المغول كما حلت في المغرب دولة الموحدين محل المرابطين .

في القرن السابع : (١٣ م) : تابع الأيوبيون ثم مماليكهم الذين تسلموا الحكم بعدهم مقاومة الصليبيين حتى أخرجوهم نهائياً من الشام وأوقفوا الزحف المغولي المدمر فبقي في العراق وما وراء من إيران .

أما المرابطون في الأندلس فقد هزموا في الأندلس بعد انتصارهم وأسلموها للاحتلال الأسباني عدا غرناطة ومنطقتها التي ظلت صامدة

حتى أواخر القرن التاسع/١٥م.

في القرنين الثامن والتاسع للهجرة حكم المماليك مصر والشام وكانت دول المغول والتركمان في العراق وظهرت بدل المرابطين في المغرب الدولة المرينية. كما ظهرت في إفريقة (تونس) الدولة الحفصية.

في القرن العاشر الهجري/١٦م (سنة ١٥١٦ ــ ١٥١٧) دخل الأتراك العثمانيون البلاد العربية فظلت في نطاق دولتهم ــ عدا المغرب ــ حتى سنة ١٩١٧ أي ٤٠٠ سنة.

« إكليل قيصر »

يوليوس قيصر ، زعيم روما القديم قبل أكثر من ألفي سنة والذي سمى شهر يوليو باسمه ، يروون عنه أنه كان يحتفظ بإكليل الغار رمز النصر والبطولة على رأسه دوماً . لا ينزعه أبداً . في مجلس الشيوخ أو في السوق ، وفي عربة القتال أو في سهرة الأنس والشراب . كان الإكليل دوماً يعلو هامته . ما السر ؟ أهو الغرور والاعتداد ؟ أم الغرام بالإكليل والافتتان بمدلوله أو بجماله ؟ لا هذا ولا ذاك الذين يعرفون السر قالوا أنه كان يواري به صلعته القرعاء... ذلك الفراغ الواسع اللامع في أعلى جمجمته !.

ولقد خشيت يوم اخترت لأحاديثي هذه موضوع الحضارة العربية عامة والإسلامية بخاصة . ميزاتها . أمجادها . فضلها على الإنسانية ... خشيت أن أهتم بمواراة صلعة قيصر . خشيت أن يكون اختياري نوعاً من اللجوء إلى الماضي ، هرباً من فراغ الحاضر ، أو رعب الواقع ... بعض النساء كذلك ... إذا قيل لهن : لقد تجعد الوجه يا خالة ! واشتعل الرأس شيباً كثر حديثهن عن الفتنة الغابرة التي أوقعت عشرات الرجال في غرامهن ... وجئن بصورهن أيام الصبا الريان .

على أن الأمر في هذا الأحاديث مختلف . مختلف حتى في زوايا النظر وأبعاد الكلمة . بقايا الأقمار والنجوم في أيدينا ليس همي أن أجعل منها عقوداً وأساور من فضة للتباهي ، أو مداراة الفقر والمتربة . حكايا التراث ، على أنها حكايا ألف شهر لا ألف ليلة ليست هي الغاية . إنما هناك أفكار وملاحظات كزغب العصافير تنقر في جبيني من هنا وهناك ، معظمها مما لا يتحدث به

المتحدثون، وإن كان في الصميم وفي مفاصل الإنسانية ... إنها إن شئتم محاولة لإعادة تقويم هذا التاريخ ومنحه التوازن وماله من الدور الإنساني ... المشكلة الكبرى في هذا التاريخ أنه مجهول. مجهول لدرجة الدخول في العماء. أهو زعم من الزعم هذا القول؟ أهي مقولة ترمي على الأمواج وفي الهواء لمجرد الإثارة والإغراب؟ الواقع إنها الحقيقة المؤلمة. إننا لا نجهل تاريخنا فحسب ولكننا أيضاً نجهل أننا نجهله. نحسبه معروفاً معلوماً. أليس يخطب الخطباء. في السيرة وعهد الراشدين كل يوم؟ أليس يروي المحاضرون أخبار الإمام علي وعمر بن الخطاب وأبي بكر وكوكبة النور من الصحابة في كل مناسبة؟ أليست تؤلف المسرحيات التاريخية وتركض الكتب في الأسواق بلى! ولكني مع ذلك كله أزعم أن تاريخ العرب ضائع في غيابة النسيان ... ونحن من تاريخنا أشبه برجل فاقد الذاكرة لا يدري يومه بما كان أمسه ولا يعرف، على الكبر تقلب الليل والنهار ما كان وما هو كائن وما سوف سيكون ...

نحن فاقدو الهوية التاريخية، مع أننا من أكثر الأمم تاريخيةً وحبنا للتمسك بالخبر هو من صميم تاريخنا الذي يمتد في الآفاق الواضحة على الأقل ثلاثة آلاف سنة. نحن لا نملك منه في أذهاننا إلّا الصور الفردية لحوالي عشرين أو ثلاثين سنة، هي عصر الرسالة النبوية مع بعض سير الصحابة الأكرمين. إنها جزيرة واحدة صغيرة طافية، في هذا الخضم الهائل من الزمن... وهي طافية لأسباب دينية روحية. ولأنها فترة التشريع والقدوة. سندبادياتنا التاريخية مقصورة على غزو هذه الجزيرة والتجارة بما يثقلها من الخير والروعة ... أما باقي الآلاف فلها الله ... أهي معرفة غير متوازنة بالذات؟ بتطور الكيان؟ قد تكون لكنها مع ذلك ليست جهلنا الوحيد... جهلنا الآخر هو لما حمل التاريخ العربي، في دهره الأطول، من تراث حضاري إلى سوق الإنسانية. علمونا أخبار المعارك والفتوح. عدوا لنا جماجم القتلى والعسكر المجر. حفظونا أسماء الملوك والخلفاء. أسمعونا أصداء وقع السنابك من الهند إلى الأندلس...

ولكنهم تركوا في العتمة أولئك الذين بنوا صرح الفقه الإسلامي . أو طوروا الخط . أو زخرفوا بنور عيونهم شرفات قصر الحمراء . أو كشفوا أسرار الداء والدواء ... أو زادوا في الطنبور نغماً . أو نظموا التعاون الاجتماعي بالأوقاف ... التوجه الخالد الباقي للناس أهمل . ووجه الثورة والفتنة والقتل هو الذي وضع أمام العيون . وفقد التاريخ العربي بذلك أروع ما فيه ... فقد الروح ؟

أليست المشكلة الكبرى في هذا التاريخ أنه مجهول ؟

في الصفحات التالية نقف دقائق . دقائق فقط ، عند بعض ما أعطى وسنجد أنه أعطى الكثير !

« الخلود المرهق »

في أساطير العرب أن لقمان الحكيم تمنى على ربه الخلود . فقال الرب : لا لا خلود ... ولكن اختر طول العمر . تخير بين بقاء سبع بقرات عفر في أرض قفر لا يمسها القطر . وبين بقاء سبعة أنسر كلما هلك نسر عاش نسر ... واختار لقمان النسور ...

منذ الزمن الأقدم كان النسر رمزاً عربياً للبقاء الأطول ... إنا نراه في آثار السومريين في ما بين النهرين كما نراه في آثار الحثيين في شمال الشام ... ولقد غاب فترة . ثم عاد في العهد السلجوقي ليكون شعار أولئك المحاربين ضد الصليبيين ، ثم شعار صلاح الدين ينقشه على قلعة القاهرة ... وسرقه أباطرة ألمانيا منذ ستة قرون من المشرق العربي فجعلوه نسراً مزدوجاً برأسين . وأقاموه شعاراً للإمبراطورية . ثم قلدهم به قياصرة روسيا وأباطرة النمسا عدة قرون ، قبل أن يعود من جديد شعاراً لبعض الجمهوريات العربية منذ خمسين سنة ... وإلى اليوم .

على أن حديثي ينصب في الحقيقة على نسر آخر معنوي ، يمكن أن يكون رمز هذه الأمة العربية ... رمز الخلود فيها ... بلى ! أعرف أن الغارقين في الواقع اليومي المرير المرير . إن الذين تتفطر أكبادهم مزقاً على نشرات الأخبار ، أن الذين تعول في صدورهم الجراح جرحاً على جرح على جرح كل صباح ... يهزون الآن رؤوسهم ريبة وتشككاً ... أتتحدث عن أمة العرب ؟! أنا منهم هؤلاء وكذا أفهمهم حتى الأعماق ... الجراح صارت خبزي اليومي منذ زمن . لكنني أهرب من هذا الواقع العابر إلى النظرة الاستشرافية الواسعة . أترك عيوني

فقط خارج المستنقع لأعلقها بالجسر الأعظم : بتاريخ هذه الأمة الذي امتد عبر أربعة آلاف سنة على الأقل من الإنجاز والعمل الحضاري الباقي ... في هذا الأفق فقط تظهر النسور السبعة ... ويختفي عويل الجراح ...

وفي هذا الأفق يتبدى التاريخ العربي سلسلة متصلة من الحضارات كنسور لقمان ، لا يشيخ أحدها حتى يبدأ الآخر ، وعلى مدى عدة آلاف من السنين ... بلى ! الفقرة الإسلامية من هذا التاريخ هي الأروع فتحاً والأسمى روحاً ، والأقدس رسالة ، والأوسع عالمية . ولكن ثمة كفة أخرى للميزان قبلها ... وإذا كانت الفقرة الإسلامية منه تمتد حتى اليوم أربعة عشر قرناً ، فإن الفقرات السابقة للإسلام تمتد في القدم عشرين قرناً على الأقل إن لم نمض مع بعض النظريات ــ وهي صحيحة كل الصحة ــ فتصل إلى ثلاثين قرناً أو تزيد ...

لو رسمنا الخط البياني لحركة هذه الأمة في التاريخ لوجدناه خطاً متصل الحركة غير منقطع على الدهر قد يهبط ولكنه على الدوام يعاود الصعود .

أبداً ما عرف التاريخ أمماً كثيرة ديناميكية الحياة والحركة على مدى آلاف السنين كالعرب ... باستثناء الهند والصين !

كل الأمم وبقاع الأرض الأخرى بعضها ممحل جديب الحضارة كبعض الأرض الإفريقية أو لم يعط سوى حضارة واحدة ، كاليونان في القديم ، ودول أوربا في الحديث ... والخط البياني للحضارة العربية كثير القمم الحضارية . قد يهوي في لحظات الضعف والعجز الحضاري لترتفع من جديد بحضارة جديدة . مركزها في قلب العالم أعطاها هذا القدر ، لا مفر منه .

ولقد تتغير المواقع الجغرافية لهذه الحضارات حسب التقاء وافتراق العوامل المكونة ومقومات الحياة والعمل والقوى الدولية ... ولكن الشعب العربي الباني ، المبدع يظل هو نفسه بكل مكان ...

وبعد هذا فالكثيرون منا ، لا سيما حديثو العهد بالدراسة الثانوية ، قد

يحسبون أنهم يعرفون تاريخ العرب السابق للإسلام ويتحدثون عما بقي في الذاكرة من خبر معين وسبأ وحمير وعن الأنباط وتدمر والغساسنة والمناذرة وعن العرب البائدة والعرب العاربة والمستعربة وعن الجاهلية والجاهلية الأولى ... هذه المعالم التقليدية التي تطرز بها كتب التاريخ المدرسية منذ النهضة الحديثة ... أضحت الوجبة التاريخية المألوفة من تاريخ العرب لليافعين .

ويطوي المدرسون الكتاب ...

إن لم نشأ أن نذكر هنا ما يؤكده العلماء من أن لغابر اليمن غابراً يسبقه . ومن أن تلك الأرض عرفت قبل دولة معين وسبأ حضارات أخرى بنت فيها الحياة . فلا أقل من أن نذكر ما نعرف بيقين من تاريخ العرب المنسي ...

من ذا الذي ، في العرب ، يذكر بني الأبجر ، ملوك الرها قبل الميلاد بقرنين أو ثلاثة ؟ ومن ذا الذي يذكر بني شمس الكرام ، معاصريهم في حمص وسورية الوسطى ؟ ومن ذا الذي يتحدث عن اليطوريين ودولتهم التي أنشأوا بين دمشق والبقاع وشمال فلسطين ؟ وأين الحديث في أي كتاب عن تاريخ العرب عن تلك الدولة العربية التي نشأت في قلب الصحراء في حائل قبل الميلاد بثمانمائة سنة . وقاومت أشرس المقاومة الآشوريين وكان من ملكاتها شمس ، وزينب ؟ أو خبر الدولة التي قامت في القرن الرابع للميلاد في جنوب سورية وكان من ملوكها امرؤ القيس ... لا الشاعر ولكن الملك ؟ ومن ذا الذي كلف نفسه مشقة البحث عن ذلك التحرك العربي الأوسع الذي سبق الإسلام بثلاثمائة سنة وفتح فارس ثم أجهض وانكفأ خاسراً حسيراً على يد سابور ذي الأكتاف ؟... ومن ذا الذي قرأ وأعاد تكوين تاريخ ثمود من خلال أكثر من ١٢ ألف نقش تركوه ؟... هذا إذا لم يرجع إلى الوراء ونضم التاريخ منذ الأكاديين والسومريين والكنعانيين وغيرهم وكلهم منا ومن لحمنا ودمنا .

إن أمة لها مثل هذه الطاقة الحركية المبدعة لهي أمة الأنسر السبعة ...

أم ترانا نعيش آخر أيام نسر لقمان الأخير ؟..:

« المدرسة والجامع »

في نشرة كاثوليكية قرأت منذ عهد قريب أن المسلمين يقيمون المساجد بكثرة في العقود الأخيرة وأن مسجداً يقام كل يوم على الأقل... وقلت بيني وبين نفسي إنها أمائر التقوى. إنهم يقيمون بيوت اللّه ... لكن هل تراهم يذكرون أن المسجد، ومنذ مسجد رسول اللّه الأول كانت له وظائف أخرى؟ أتراهم يحسبون حساب تلك الوظائف ويرصدون لها من الأوقاف ما كانوا من قبل يرصدون؟

العلم والتعليم مثلاً كانا بجانب الحكومة والقضاء والإعلام. من وظائف المسجد أهم تلك الوظائف هو تاريخ التعليم في الإسلام ـــ لو وقفنا عند التعليم ـــ وهذا التاريخ متصل بالمسجد دوماً.

إنه احتضن المدرسة منذ ظهر وظل يحتضنها في مختلف القرون: ما استقلت عنه في بناء مستقل إلّا منذ أو أواخر القرن الثالث الهجري. انفردت بأساتذتها وطلابها تدريجياً، ولو لم يتخل المسجد عنها أبداً. في القرون الإسلامية الأولى. كانت حلقة التدريس تلتجئ إلى إحدى أسطوانات المسجد حيث يجلس الشيخ. الصورة التي نشهدها اليوم لحلقات الوعظ والإرشاد في الجوامع كانت شكل التدريس القديم. وفي هذه الحلقات تخرجت أجيال العلماء كافة في التاريخ الإسلامي وتكون الفكر العربي الإسلامي كله... كان التعليم أول الأمر، في الجامع. ثم خرج عنه منذ القرن الرابع للهجرة إلى الدكاكين في الأسواق وإلى الدور والرباطات والبيمارستانات.

ومنذ حوالي أحد عشر قرناً بدأت المدرسة تظهر لوحدها في الحضارة

العربية الإسلامية. في القرن الرابع الهجري مثلاً كان في نيسابور وحدها ٢٨ مدرسة. وفي أواسط ذلك القرن نفسه ظهر الأزهر، مدرسة للتعليم على المذهب الفاطمي ... كان خريجوه دعاة للمذهب. مما أثار السلاجقة الذين تولوا في تلك الفترة قيادة المشرق الإسلامي. فأنشأ وزيرهم نظام الملك مدرسة ضخمة في بغداد، أشبه بالجامعة كانت رأساً لسلسلة واسعة من المدارس أقامها في المشرق كله، وحملت عبء التدريس الديني السياسي. أضحت تخرج العلماء على المذهب السني الشافعي ليكونوا قضاة وأئمة وموظفين في الدولة ...

وانتشرت الظاهرة انتشار النور بكل مكان فما أتى العهد المملوكي بعد الأيوبي قبل حوالي ٦٠٠ إلى ٧٠٠ سنة حتى كانت المدارس تعد بالمئات. قامت في دمشق مائة مدرسة، منها اثنتان للطب وواحدة للهندسة، وفي القدس ٤٤ مدرسة. وفي بغداد رغم سقوطها بيد المغول ٤٠ مدرسة. منها المدرسة المستنصرية التي كانت جامعة كاملة فيها مدرسة للطب وأروقة لدراسة المذاهب الأربعة، ومساكن ومطابخ وحمام ومستشفى ... ولأساتذتها وطلابها الجرايات ... حتى ثمن الورق والأقلام وزيت المصابيح!... وعرفت القاهرة حوالي الخمسين مدرسة. منها الأزهر الذي تحول في الحكم الأيوبي ثم المملوكي إلى جامعة للدراسة السنية ...

هل كان التعليم من وظائف الدولة؟ أبداً كان التعليم مسؤولية الشعب وحده. وكان مجانياً بل ومأجوراً للمعلم والمتعلم على السواء. وهاهنا نقف على ميزة من أروع المزايا التي تفردت بها الحضارة العربية الإسلامية! بين ما تفردت به. المحسنون هم الذين تبرعوا ببناء الأعداد الضخمة من المدارس التي عرفنا. والموسرون هم الذين كانوا بما يوقفون عليها من الأحباس والأوقاف يضمنون الرواتب لأساتذتها على القرون، والجرايات لطلابها، والنفقة للدراسة والإقامة فيها والترميم ... حتى الحكام، إن شاركوا في المهمة، فإنما هو من باب التفضل

والتكريم للعلماء والعلم ليس غير ... أضحت المدرسة والتعليم نوعاً من الواجب الديني. ما إن يتميز في بلد عالم من العلماء حتى يجد من يبني له مدرسة، واحباساً دارة مستمرة ... بناؤها يكمل بناء المسجد في الأذهان. ومهمتها تكمل مهمته، في العبادة ... العلم ضرب من العبادة كان عند الناس !...

بلى ! أفسد هذه المدارس مع الأيام في المشرق سيطرة التقليد عليها وغلبة أهل المصالح الدنيوية. فضمر فيها الإبداع حتى مات ... في الأندلس، حيث ظهرت المدارس بعد المشرق بثلاثة قرون لم تصب المدرسة كثيراً بهذه الأدواء. جامعة قرطبة بلغت شأوها في زمن عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر وكان طلابها يعدون بالآلاف من إفريقية وإسبانيا وفرنجة أوربا.

وكانت تدرس الطب والرياضيات والفلسفة والفلك بجانب علوم الدين واللغة. جامعة غرناطة التي نشأت منذ ٦٥٠ سنة كانت مثلها. حتى في البلاد التي كان يقتطعها الزحف الفرنجي من عرب الأندلس ظهرت جامعة عربية كبرى قبل ٧٠٠ سنة في مملكة قشتالة وتسلمها أبو بكر الريقوني وكانت تدرس بها أنواع العلوم وباللغة العربية ...

جامعة الأندلس هذه هي التي علمت الجيل الأول من تراجمة الفرنجة وهي التي كانت نواة أقدم الجامعات العلمية التي نشأت بعد ذلك في أوربا ...

من الذي يذكر اليوم أن ذلك الصرح العلمي الفكري الذي أقامه العرب إنما نشأ أول ما نشأ في زاوية المسجد ؟.

« قصة الورق »

طلاب المدارس في أنحاء الدنيا يعرفون أن الكتابة إنما اكتشفت في بلاد العرب وبالتحديد في المدى الأرضي الممتد ما بين وادي الرافدين إلى الشام إلى وادي النيل . وأن الأبجدية بالذات ولدت في الشام ، على الشواطئ المغتسلة بزرقة البحر الأبيض المتوسط . وقد تعرفون أن الكتابة بدأت على الأحجار والطين ... فكانت كتابة رسالة صغيرة تقتضي عمل ساعات طويلة أو أيام ... وحمل جمل ! لكن القلائل هم الذين يعرفون قصة الورق ... هذه المادة الخفيفة الرقيقة الناعمة البيضاء اللينة ، المطواع ، الرخيصة السريعة الطي التي تقرأ عليها الصحيفة وتلف بها الفاكهة أو ترزم الألف منها في مدى كتاب ، هذه المادة هي بدورها أعطاها العرب للدنيا . وكما يمكن أن نسمي عصرنا الحالي عصر البلاستيك فإن العصر العربي الإسلامي يمكن أن يسمى عصر الورق . كان نشره بين الناس ثورة من أكبر الثورات في الفكر ... ومن أعمق الثورات أثراً في الحضارة الإنسانية ... وإن تكن ثورة بيضاء خرساء !... موجز العملية الثورية هذه : أن الشرق العربي ، كان قبل الفتح الإسلامي بزمن طويل قد ودع عصر الكتابة على الحجارة وألواح الطين منذ زمن ، وأخذ يكتب على الجلود الرقيقة (الرق) وعلى البردى ، هذه الأوراق النباتية التي يلصقون بعضها إلى بعض بالطول وبالعرض ويصنعون منها رقاعاً صغيرة ويكتبون ... وفي العهد الإسلامي الأول أيام الأمويين ومطالع العباسيين كان مصنع الدنيا للبردى في مصر . عبد الملك بن مروان والخلفاء ، من بعده اتخذوا البردى سلاحاً اقتصادياً لمحاربة الروم : منعوا تصديره إليهم وإلى أوربا ... فاختنقت الكتابة هناك ... بلى

كان ثمة مادة رقيقة للكتابة ، ولكنها كانت في الصين ... ومن للناس بالوصول يومذاك إلى الصين ؟ ومن لبضاعة الصين ينقلها إلى العالم الغربي ؟... ما يترشح للناس منها ، ومن الورق خاصة كان أندر من الكبريت الأحمر ، وأغلى من الياقوت ...

وقد عرف العرب الورق الصيني الرقيق الناعم اللين ، ولكن كان أولى لهم أمام غلائه أن يظلوا على إلصاق أوراق البردى إلى جانب بعض . وذات يوم ... في عهد أول العباسيين أبي العباس بعد سنتين فقط من انهيار الحكم الأموي التقى الجيش العربي الإسلامي مع الجيش الصيني في معركة على النفوذ السياسي وعلى المصالح التجارية معاً ، في ما وراء النهر . كانت المعركة من المعارك الفاصلة التي قررت مصير بلادتركستان إلى اليوم . هزم الجيش الصيني هزيمة ساحقة . ودخلت تركستان نهائياً في إطار الحضارة العربية الإسلامية ... وأسر من الصينين الآلاف وأتى بهم إلى سمرقند ... بين الأسرى كان ثمة اثنان يعرفان سر صناعة الورق . مالك الأسيرين وعدهما بالحرية إن كشفا سر هذه المادة الورقية وفعلا ... وأقيم أول مصنع للورق في سمرقند من القطن والكتان . بعد سنوات معدودة كانت الصناعة تنتقل إلى بغداد الجديدة . ثم إلى مدن الشام بل وإلى مصر لتزاحم صناعة البردى فيها ... بعد نصف قرن صارت وثائق الحكومة العباسية تكتب في الدواوين على الورق الذي غمر الأسواق العربية ووصلت مصانعه إلى الأندلس !...

في تلك الفترة بالذات كانت الحضارة العربية الإسلامية قد وصلت عصر التدوين والتأليف : تدوين الحديث الشريف وتدوين اللغة والشعر والأدب والتاريخ الإسلامي . وقد وصلت عصر الترجمة وتعريب علوم الأوائل ... فكان ظهور الورق وتوفره بين الأيدي ثروة كبرى من النعم . وثورة في إمكان التدوين والتسجيل . وفي تفتح الفكر العربي ونشاطه ... اكتملت للحضارة العربية الإسلامية الأداة الأساسية في إثبات الفكر وفي نقل الفكر . وهكذا كان عصر

الورق . الذي فتح للفكر العربي والعالمي أبواب الانتشار على مصاريعها . كان دعوة لكل العقول أن تعرف وأن تعمل وتعطي . لم يعد الفكر حكراً لطبقة ولكنه مبذول للجميع ...

بعد ذلك بأربع مائة سنة عاد الحجاج الفرنجة إلى بلادهم من زيارة قبر سانتيا غودي كومبوشيلا ، في شمال إسبانيا يحملون معهم أولى صفائح الورق إلى أوربا التي ما عرفت هذه الأداة الفكرية إلَّا منذ ثمانية قرون فقط . ولم تقم أول مصانع الورق فيها إلَّا سنة ١٣٥٠ أي منذ نيف وست مائة سنة . وكان ذلك في إيطاليا . بعده بنصف قرن بنى الألماني شترومر في نومبر غ أول مصنع للورق عرفته ألمانيا ...

هل نتابع قصة الورق؟ لم يبق فيها إلَّا كلمتان : مات الورق العربي تدريجياً بعد ذلك . أما المصانع الأوربية التي ولدت في أواسط القرن الرابع عشر فهي التي ما زالت إلى اليوم تطوره وتمون به الدنيا ...

ترى هل نعرف ونقدر كم تساوي قطعة الورق في حضارة الإنسان؟

« الرحلة في طلب العلم »

لو قيل لك اليوم أن عالماً من العلماء لا يقرأ الكتب ، ولكن يأخذ العلم شفاهاً من أفواه الآخرين فماذا يكون رأيك في هذا العالم؟ وفي الثقة بعلمه؟ أغلب الظن أنه هابط في نظرك إلى الحضيض أو أن الريب على الأقل تدخل في علمه وفي جدية هذا العلم!...

وفي العصور الإسلامية، وبخاصة في القرون الأولى كان الأمر معكوساً ... العلم لا يؤخذ من الكتب ولكن بالمشافهة ... فإن قيل عن فلان أنه يأخذ علمه من الكتب فإنما يعنون بذلك المعرة له . يعنون وضعه مع العلم الذي يعلم في موضع الريبة والتشكيك ...

السر؟ ليس في الأمر من سر ولكن القضية تتعلق بالتوثيق العلمي . كانت الكتب مخطوطة . وكان في قمة العلم الإسلامي رواية الحديث النبوي . ولما كان ممكناً دوماً لناقل المخطوط أن يزيد وينقص فيه ، وكان من الضروري أن يستوثق طالب العلم من راوي الحديث نفسه عنه . وانسحب ذلك على العلوم الأخرى من لغة ونحو وشعر وفقه ... فلم يكن ثمة من علم موثوق إلّا ما يؤخذ مباشرة عن أصحابه . أهذا كل شيء؟ لقد كان من أهم النتائج لهذه القضية أن العالم الإسلامي تحول كله ، وخلال القرون المتتالية حتى مطالع العصر الحديث إلى خلية نحل ... صار العلم قضية حركية ، لا يكون العالم عالماً إن لم يلق بنفسه العلماء أنفسهم ، حيث يكونون من أرض الله ... صارت الرحلة في طلب العلم جزءاً من التكوين العلمي لكل عالم ... وإذا كان الطالب من طلابنا اليوم يرحل إلى بلد معين أو جامعة محددة فيبقى هناك السنوات ثم يرجع

بالشهادة العلمية ، فإن العلم الإسلامي كان موزع المراكز ماتوزع شيوخه من أرجاء بلاد الإسلام . بدأت الرحلة في طلب العلم في جيل الصحابة نفسه . أبو أيوب الأنصاري مثلاً رحل من المدينة إلى مصر ، والرحلة تستغرق أربعة أشهر ليسمع من عقبة بن عامر حديثاً سمعه عن رسول الله . فلما حدثه به ركب أبو أيوب راحلته عائداً إلى المدينة . وما حل رحله ... على أن توزع الصحابة التابعين وتابعي التابعين بعد ذلك ، ثم توزع العلماء التالين في الأمصار جعل طلاب العلم جزءاً من قوافل الأسفار في كل أفق ...

كانوا يلحقون بالعلماء من مصر إلى مصر . المؤمل بن إسماعيل سمع حديثاً في فضل القرآن من رجل . فسأله عن روايته فسمى له رجلاً في المدائن فقصده فسمى له راوية آخر في واسط فلما أتاه ذكر له راوية ثالثاً في البصرة فلما جاءه أحاله إلى راوية رابع في عبادان فلم يتردد في قصده حتى عرف منه حقيقة الحديث ...

وقد بالغ العلماء في العصور التالية في الرحلة : حين صارت المدينة ومكة والكوفة والبصرة وبغداد ودمشق والفسطاط ثم القاهرة ومرو والري ونيسابور وبخارى مراكز العلم والعلماء كانت هذه المدن هي أحلام الطلاب . يقضون السنوات الطويلة في التنقل بينها . محي الدين ابن النجار ظل ثمانية وعشرين عاماً يطوف في البلاد وراء الشيوخ يأخذ عنهم . ابن عساكر قضى خمس عشرة سنة في ثلاث رحلات . الزمخشري برجل واحدة طاف إيران والعراق والشام والحجاز عشر سنوات ...

وبالغ العلماء في الإكثار من الشيوخ بعضهم كابن النجار بلغ عدد شيوخه ثلاثة آلاف شيخ . آخرون بلغوا ألفي شيخ والكثيرون زادوا على ألف شيخ ... وكل قراءة على شيخ في تلك العصور تعني شهادة مكتوبة على الكتاب الذي قرئ تعطي الطالب « حق الراوية » وكلمة حق الرواية هي أساس كلمة (البكالوريا) الأجنبية ...

ألا تحدث في هذه الرحلات المآسي؟ بلى! أفجع المآسي عند طلاب العلم ليست مخاطر الطريق ولا الجهد والظمأ والافتقار وإرهاق الأسفار ...

أفجعها أن يصل الطالب إلى بلد العالم المقصود فيجده قد مات!...

بقيت في النهاية كلمة: إن وحدة الحضارة الإسلامية إنما تدين إلى هؤلاء العلماء الذين ربطوا بهذه الرحلة الدائمة الفكر العربي الإسلامي بعضه مع بعض، ومنعوا شتاته بين المراكز المختلفة، ووحدوا دروبه ومناهجه من المشرق إلى المغرب في بلاد تمتد سنة من السفر أو تزيد بين طرفيها.

فتحية لتلك الأرجل المتعبة التي خفقت لتنسج وحدة هذه الأمة ...

« ربيع المدائن »

في جبين الناس ، تقترن النخلة والخيمة ورمل الصحراء باسم العربي كأنما خلق من أضلاعها ... أو كأنما البداوة دم الشرايين فيه .. حتى نحن العرب على هذا التصور الذي أزعم أنه خاطئ خاطئ . صحيح أن الصحراء تضرب في دنيا العرب من المشرق إلى المغرب مفترسة حتى خضرة العيون . وصحيح أن جانباً من العرب ما يزال إلى اليوم أسير الرمل والشمس والسراب ، لكن أزعم أن الخط الحضاري العربي كان دوماً ثورة على الصحراء رفضاً لها ، تجاوزاً لها إلى ما وراءها . الحياة المدنية المستقرة هي الهدف الأخير !...

بلى التحرك من البداوة إلى الحضارة قانون الحياة . كل الأمم المتحضرة مرت به ... بمراحله وأجوائه ... ومع ذلك فكم من الفرق بين بداوة المغولي أو الجرمني أو الإغريقي أو السلافي في التاريخ وبداوة العربي ... بداوة المغول كانت تهب ، حين تهب ، كالأعاصير المدمرة ساحقة المجتمعات البشرية والمدن . تحرق الربيع حيث حلت . وتزرع الجماجم . وترسل الرعب أمامها قوافل إثر قوافل . وبداوة الإغريق أعطت حضارة واحدة ، ثم انطفأت إلى الأبد ... وبداوة الجرمني انتظرت ألف عام بعد أن دمرت الإمبراطورية الرومانية لتبني هذه الحضارة الحديثة ... وبداوة السلافي لم تتحول للعطاء إلَّا منذ قرنين ... وحدهم العرب كانوا أرفق البدو بالحضر ، عند الاجتياح ، وأسرع البدو إلى الغرق في الجو المدني عند الاندماج .

الإنسان ، الزرع ، الكتاب ، البناء الرائع ، القيم الدينية والفكرية للآخرين كانت دوماً أكرم الأمور على العرب الفاتحين ، والتحول إلى البناء

والاستقرار كان أول ما يفعلون ... إذا نسينا فلنذكر أن الإسلام في أعماقه مدني . إنه إنما كان لبناء الحضارة والمجتمع الحضري الأسمى ... ولعل من الرموز الكبرى فيه إن أول ما فعله سيد المرسلين ، حين وصل المدينة ، عند الهجرة ، إنه بنى المسجد الجامع للناس، وبني البيت الذي يسكن. ويلقى فيه الناس ...

وينسى الناس في زحمة الحديث عن الحضارة العربية ظاهرة العمران السريع جداً والواسع جداً فيها . يذكرون للخليفة الثاني مثلاً عمر بن الخطاب عدله ، وهو العادل حقاً ، وينسون له الظاهرة الرائعة وهي أنه أبو المدن في الإسلام ! لم يكن بين عهده وعهد الرسول سوى سنتين ، ومع ذلك فقد أمر العرب بتخطيط المدن في العراق والشام ومصر وإفريقية ... بنى ست مدن ما يزال باقياً منها إلى اليوم ثلاث كبار : البصرة والكوفة ومصر ... ولو ضربنا صفحاً عن بناء المساجد والجسور والقلاع والطرق والقنوات والأربطة ، واكتفينا بظاهرة بناء المدن لوجدنا من ذلك عجباً ...

قد لا يعرف الكثيرون أن الحضارة العربية الإسلامية بنت ما بين مشارق الأرض ومغاربها ، أي ما بين أرض الهند والتركستان وأرض الأندلس ، أربعمائة وتسعين مدينة ما يزال أكثر من ثلثيها مراكز مدنية كبرى وصغرى ... إنه الإحصاء الذي حققته مؤخراً بنفسي[١] . وندر في التاريخ أن بنت أمة مثل هذا العدد من المدن . حتى الإغريق .

وليست المدينة عند العربي مجرد بناء بيت وطريق . إنها مركز مدني . أأحدثكم ببعض حديث هذه المدن ؟ مدينة الزهراء التي بناها عبد الرحمن الأكبر (أو الثالث) سيد الأندلس في أواسط القرن العاشر ... أقامها عند قرطبة بالحدائق الغضة وقصور المرمر والبلور وخشب الأبنوس . عشرة آلاف

---

(١) انظر شاكر مصطفى ـــ المدن في الإسلام الجزء الأول ص١٤٦ فما بعد حتى ٣٠٠ .

عامل عملوا في بنائها خمسين سنة ... ومع ذلك فقد كانت قرطبة في جوارها تحوي ١١٣ ألف منزل و ٦٠٠ مسجد و ٣٠٠ حمام و ٨٠ ألف متجر و ٨٧ مدرسة و ٢٠ مكتبة عامة. وتضاء طرقها في الليل بالفوانيس وتجمع قمامتها بعربات تجرها الثيران ...

يومذاك كانت باريس قرية موحلة الطرقات ليس فيها مدرسة ولا حمام ولا فانوس ليلي. بينما كان هناك ما بين جبال سييرانفادا وسييرامورينا ما يزيد على ١٢ ألف تجمع سكني منها ٦ عواصم وثمانون مدينة و ٣٠٠ بلدة كبيرة بين الآلاف من القرى ...

هذا في المغرب. وأما في المشرق فهل تحتاج إلى ذكر بغداد التي ظلت عاصمة الدنيا في الفكر والسياسة والفن والحياة المدنية خمسة قرون. أو ذكر القاهرة أو دمشق أو نيسابور أو شيراز وما في هذه أو تلك من مئات المساجد ومئات المدارس ومئات المكتبات الخاصة والعامة ... وما فيها من الأوقاف الموقوفة حتى على الحيوانات المريضة؟...

ربيع المدائن الذي نثرته الحضارة العربية الإسلامية ما يزال على زهوه في الكثير من أركان الأرض... أليس هذا الربيع بالدليل الكافي على عمق الروح المدنية في هذه الأمة.

ومع ذلك يظل الرمل ملتصقاً بجلد العربي كأنما هو قدره، حتى في تصور العرب ... أليس ذلك بغريب؟

« التجربة الكبرى »

قبل هذا العصر الحديث الذي اختلطت فيه النظم وظهرت قبائل الأقمار الصناعية ، وانتحرت العزلة والأسطورة ، وظهرت حضارة العالم الواحد ، حضارة الحضارات قبل هذا العصر ، عرف التاريخ شعوباً وقبائل لا أكثر ولا أوسع ، وعرف من الحضارات ألواناً وأبعاداً ...

الإنسان ، هذا الكائن العجيب ، أبدع الكثير في مختلف الأزمنة والأمكنة . لكن التاريخ ما عرف أبداً حضارة واحدة لخصت حضارة العالم كله وكانت حضارة الحضارات سوى مرة واحدة .

وكانت هذه المرة هي الحضارة العربية الإسلامية . الذين بحثوا عما يسمونه بتمازج الثقافات في هذه الحضارة ، الذين بحثوا عملية الترجمة والتعريب ، ونصبوا الخليفة المأمون عراباً لهذه العملية ، الذين حكوا عن الفلسفة اليونانية ونقل أدب الفرس وطب الهند ... فاتهم في دوامة التفاصيل أن تجربة حضارية كبرى فريدة ، لم يسبق لها مثيل ، كانت تتم في تلك الأثناء ... أو فلنبدأ الحكاية من أولها ...

حين أطلت الرسالة المحمدية من بطاح مكة قبل أربعة عشر قرناً كان حوض البحر الأبيض المتوسط قد شهد عدداً من الحضارات الإنسانية . كان بحيرة الحضارات القديمة كلها ، مياهه والشواطئ وما وراء الشواطئ كانت قبل ذلك مهد الإبداع الإنساني الأسمى على مدى أربعين قرناً على الأقل ... أمم شتى بنت حضاراتها الخاصة على أطرافه : مصر ، فينقيا ، الكنعانيون ، الحثيون ، البابليون ، شعوب إيجه ، الإغريق . كان آخر الأمم الرومان الذين

جمعوا المتوسط كله ومزجوه. ثم انهارت روما قبل الإسلام بعدة قرون... واتجهت حضارات المتوسط جميعاً إلى الشيخوخة. جفت. انقطع الإبداع فيها وجاءها الخريف القاسي، رغم الجدل البيزنطي... حول المسيحية. عناصرها السابقة من إغريقية ومصرية وآرامية كانت قد أعطت كل ما عندها وبدأت مرحلة الغروب.. حضارة الفرس كانت بجوارها ولكنها كانت تعيش دنيا أخرى من الفكر والقيم. حضارة الهند كانت على البعد. وأبعد منها... في أقصى الأرض كانت حضارة الصين وكانتا معزولتين.

وجاء الفتح العربي في يمناه الإسلام وفي يسراه اللغة العربية. ومنذ البدء بدأت التجربة الحضارية الكبرى:

ما كانت قد مضت سنوات على معركة القادسية حتى ذهب عمرو بن سعد بن أبي وقاص إلى بطريق الموصل فطلب إليه ترجمة الإنجيل إلى العربية... وفي تلك الفترة نفسها كان عمر بن الخطاب يطلب إلى علماء العصر وصف أقاليمهم وجغرافيتها، وبعد سنوات كان معاوية يستمع كل ليلة إلى تواريخ الأمم مترجمة إلى العربية، وبعد سنوات أخرى كان خالد حفيده يترجم إلى العربية الكيمياء والفلك وكان تراجمة آخرون في قصر الخضراء بدمشق أو لدى الحجاج في واسط يترجمون كتب الطب إلى العربية... وبين هذا وذاك ترجمت كتب الفلسفة وترجم أدب الفرس وتايخ الفرس إلى العربية. وما جاءت مطالع العصر العباسي حتى كانت الثقافة العربية الإسلامية قد مدت أيديها أيضاً إلى ثمار الهند الحضارية في الطب والفلك والرياضيات والفلسفة وحتى كانت قد وصلت الصين وأخذت منها العنصر الحضاري الأساسي في صناعة الفكر: الورق!

في سرة العالم بغداد اجتمعت بعد ذلك مجموعة حضارات الدنيا في واحدة. صاغ العلماء المسلمون من خلال الإسلام وباللغة العربية حضارة متكاملة الجوانب، في تجربة حضارية لم تسبق: جمعت بجانب أصالتها الذاتية

في دنيا الروح والفكر واللغة أبرز ما حملت الحضارات السابقة من عطاء سواء في حوض المتوسط أو في فارس أو في الهند . وأخذت حتى من الصين ... أفرغت كل ذلك في تكوين حضاري جديد لم تكن — كما قد يسمونها — عملية تمازج في الثقافات أو عملية تعريب بسيطة الأبعاد والنتائج ولكنها كانت في الواقع إعادة تكوين ، كانت عملية خلق حضاري جديد . لو يسمح العلم قلنا إنها لم تكن عملية فيزيائية من المزج بل ولا كيماوية من التركيب . ولكنها كانت من نوع التكوين البيولوجي المعقد ... أعطت حضارة جديدة للإنسان !

أهم من ذلك أن هذه الحضارة كانت ، في عهدها حضارة العالم الأولى والكبرى والوحيدة خلال ما يزيد على ثمانية قرون ...

أليست حضارة العصر الحديث هي التجربة الثانية ، على هذا الأساس ؟.

«ألف ليلة وليلة»

ألف ليلة وليلة ... ثلاث مرات على الأقل فاجأني هذا الكتاب وكأنه الرمز الوحيد لحضارة العرب : مرة كنت في أقصى الأرض ، في شيلي ، وسألني صاحب الفندق من أي البلاد أنت قلت عربي قال : أنا أعرف شيئاً عن العرب . إن لديكم ألف ليلة وليلة ، أعرفها ...

وكنت مرة أخرى أدير الحديث مع أحد الدبلوماسيين في جاكارتا فقال بين ما قال : لقد أوصاني أبي يوم دخلت السلك السياسي أن أقرأ ألف ليلة لأتعرف على عقلية الشرق العربي في الأعماق ـــ وكنت مرة ثالثة في هذا البلد دمشق أتحدث مع الكاتب الإيطالي المعروف البرتو مورافيا فقال : لا شيء يمنع الفكر العربي من أن يصبح من الأفكار العالمية . يكفي أن لديكم ألف ليلة وليلة . إنه كتاب عبقري !

في المرات الثلاث كنت أفاجأ . وأسأل نفسي بين الريبة والتسليم : وهل تلخص ألف ليلة تلك الدنيا الباذخة من حضارة العرب؟ أعرفها هذه القصص ، وتعرفها أنت ، ويعرفها أو يسمع بها الكثيرون ، عوالم من الأحلام والخيال والرموز والقيم تلتقي وتفترق وراء ثوبها الفضفاض الممدود . شخصياتها من شهرزاد وشهريار وقمر الزمان والسندباد ودليلة المحتالة والشاطر حسن وعلي الزيبق أضحت شخصيات عالمية أكثر حياة من كثير من الأحياء ، وأكثر وضوحاً وشهرة من كثير من شخصيات التاريخ ... حكاياها حملت السلوى والمتعة .. وغذاء الخيال إلى الملايين ، قروناً بعد قرون ... منذ وجدت ! ولكن متى وجدت ؟ وأين وجدت ؟ ومن ذا الذي صاغها ؟

عبثاً بحث الباحثون منذ مائتي سنة إلى اليوم عن جذورها في الزمان والمكان والأم! ليس لهذه القصص عصر معروف فهي بنت عدد من العصور. ولا بلد محدد فهي بنات عدد من بلاد الله. ولا مؤلف عبقري فهي فيض من الخيال ربما أسهم في صوغه وجمعه مئات من المؤلفين إن لم يكن الألوف. بالإضافة إلى أن لها أكثر من نص واحد وأكثر من مجموعة متفاوتة كل التفاوت من الحكايا.

كل ما خلص إليه الباحثون ليس أكثر من ضروب الاستنتاج والتخمين: قالوا: إن النواة الأولى لهذه القصص وجدت في الهند ثم نقلها الفرس في كتاب هزار أفسانه. وهذه النواة شاعت وانتشرت في القرن الرابع الهجري في العراق. وباللغة العربية. ثم أضيفت إليها في ذلك القرن ومن بعده مجموعة من القصص البغدادية العربية شكلت الطبقة الثانية في التكوين الألف ـــ ليلي القصصي.

ثم أضيفت إليها طبقة ثالثة من القصص في مصر ما بين أواخر العهد الفاطمي (أي في العهد الصليبي) وأواخر العهد المملوكي قبل حوالي ٦٠٠ سنة... أيد مجهولة كانت تجمع وتكتب هذه الحكايا الشعبية وتطرحها للناس ولعل أواخر ما كتب من ألف ليلة وليلة يعود إلى أوائل العهد العثماني في بلاد العرب أي إلى ما بين سنتي ١٥٠٠ وسنة ١٥٢٥ فإن بعض القصص تذكر القهوة وما عرفت القهوة في الشرق العربي قبل هذه الفترة...

وبينما مضى هذا الكتاب الشعبي في عتمة الإهمال في الشرق العربي كان الغرب يتلقفه بالإعجاب والدهشة. ترجم منذ ٢٨٥ سنة لبلاط الملك لويس الرابع عشر في ١٢ مجلداً. ثم توالت الترجمات للإنكليزية والألمانية والإيطالية والروسية والإسبانية... وافتتن به الناس. فولتير الكاتب الفيلسوف الفرنسي يقول أنه لم يزاول القصص حتى قرأ ألف ليلة وليلة أربع عشرة مرة. ستاندال القصاص الفرنسي الأخير تمنى أن يمحو الله من ذاكرته ألف ليلة وليلة ليعيد

قراءتها من جديد ... غوته أكبر شعراء ألمانيا اعتبرها إنجيله القصصي ... وبين الجمع والترجمة والدراسة والاستلهام صار الكتاب رمز الحضارة العربية في الغرب ... بعض العلماء الباحثين جعل مكتبته حكراً على هذا الكتاب وحده : في طبعاته المختلفة وترجماته العديدة ونصوصه المتباينة ... وبين هذا وذاك ظل الغرب طويلاً لا ينظر إلى الشرق العربي ولا يفهم أو يتعامل معه إلّا من خلال : ألف ليلة !...

أنسأل بعد عن مكان هذا الكتاب من تاريخ الحضارة العربية الإسلامية؟ لم نسأل عن مكان كتاب القانون لابن سينا ، ولا تفسير الطبري ، ولا موطأ مالك ، ولا تاريخ ابن الأثير ، ولا الفتوحات المكية لابن عربي ... فمكانها واضح ملموس أما هذا الكتاب فشيء آخر ... إنه التكملة الرائعة لكل تلك الكتب وبصورة خاصة لكل كتب التاريخ في الإسلام . لا فلسفة خاصة فيه فهو فلسفات شتى ومرام متناقضة . ولا خطة له فهو جمع عشوائي خلال العصور . ولا أسلوباً أدبياً مبيناً يشفع له فهو يمشي مع العامة والشعب أرضاً أرضاً ... ولكن فيه ما هو أهم من كل أولئك ـــ فيه ما أهمله التاريخ من أحلام الجماهير الإسلامية وآمالها ومثلها في التسليم والمغامرة والمتاع الجسمي والنبل والسحر والأنانية وسحق المرأة . فيه الصور العفوية الصادقة ، والقيم الخلقية على علاتها ، وفي مباذلها ، ولحياة الشعب الاجتماعية في طوائفه وقبوله ونزعاته وعاداته في الولائم والأعراس والمحاكم والمآتم والأسواق ... وخلوة الحب ! إنه منجم الباحثين وكفى بذلك وثيقة حضارية كبرى ...

ترى كم فينا من قرأ ولو طرفاً من ألف ليلة ؟

« عروبة العلماء »

منذ سنوات، وفي إحدى ندوات الاستشراق، كان الحديث يدور حول جمهرة علماء الإسلام وميزاتهم بمقولة أمن عليها الحاضرون دون نقاش، كأنها من المسلمات المعروفة والبديهية قال:

ــ واضح أن الكثرة الكاثرة من علماء الإسلام ليسوا من العرب. جمهرتهم تحمل مع أسمائهم انتسابها الأساسي فهذا شيرازي وهذا بخاري وهذا نيسابوري أو جرجاني أو طبري وهذا لسجستان أو بلخ وذاك لخوارزم أو سمرقند أو مرو أو كرمان أو إبيورد.

ومع أن آخر ما أفكر به هو التعصب العرقي. فالإنسان عندي أولاً واختلاط العروق بديهية معرفة، وللناس أجمعين، والمؤمنون فيه أخوة وسواسية ولا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي إلا بالتقوى... إلا أن وخزة كالشوكة الحادة طعنت جنبي في تلك المقولة السارحة... كنت أعلم أنها نبعت في الأصل من الجهل بالتاريخ العربي الإسلامي ومن النظرة السطحية إلى رجاله. ولكني كنت أعلم فوق هذا أنها تتغذى من الحقد على العرب والإسلام. ومن النظرة الدونية إلى هذه الأمة. وإلى ما قدمت من الرسالة للناس. ونبعت من الرغبة في الفصل ما بين مسلم ومسلم، وما بين عربي وأعجمي لتمزيق التكوين الحضاري العربي في جذوره ورمي العرب بالعقم الفكري.... ومن أجل ذلك فهي تستحق الجواب... هل أعيد هنا ما حضرني يومذاك من الجواب؟...

القضية في جذورها أن الفتح العربي الإسلامي لم يكن مجرد فتح

سياسي. ولا مجرد نشر لعقيدة دينية على الناس. ولكنه كان في واقعه أيضاً إحدى الهجرات العربية الكبرى. كان حركة فيض بشري أيضاً. وقد ظلت هذه الحركة مستمرة التدفق بعد معارك الفتح الأولى أكثر من مائة سنة. وبعد أن هدأت قرنين تقريباً عاد الفيض البشري يتكرر. ولكن على مقياس محدود هذه المرة. برزت فيه خاصة تغريبة بني هلال ونزوح أعداد من القبائل القيسية واليمنية إلى الشام... الهجرة الهامة هي الأولى وقد قاد الخلفاء منذ عهد أبي بكر. حتى المنصور، تحرك هذه الهجرة. أوصلوها إلى أطراف الأرض. قبائل بأكملها، برجالها وأولادها وثغاء الشاة ورغاء الجمال. تحركت ونزلت أرض السند وأرض خراسان وتركستان وبلاد القفقاس وأرمينية وأعالي الجزيرة كما توطنت في إفريقية والمغرب ونزلت الأندلس... وفي كل مكان كانت الطريقة واحدة: بناء المدن والمستوطنات المحصنة والاستيطان الجماعي مع الإسلام والتعريب... وفي كل الجبهات كانت المهمة واحدة. ومقدسة: الجهاد. الخلفاء أرسلوا العرب جنوداً بعشرات الآلاف بعد عشرات الألوف للاستيطان والدفاع عن حدود الدولة. ١١٤ ألف صحابي مع ذرياتهم توزعوا في الأرض، من بعدهم مئات الألوف من التابعين وتابعي التابعين. ومن يتبعهم بإحسان! الجزيرة العربية كلها زحفت غرباً وشرقاً. فأما الذين غربوا من العرب وأقاموا الزهراء والحمراء في الأندلس فاحتفظوا بأنسابهم العربية. عربوا الأرض وما عليها. ومع أن الكثيرين منهم حملوا مع أسمائهم الانتساب إلى بلادهم فهذا شاطبي وهذا إشبيلي وهذا جياني وذاك طرطوشي والآخر قرطبي فإن أحداً لا يستطيع الاسترابة في عروبتهم... وأما الذين شرقوا ونزلوا أرض الهند وإيران وتركستان وأذربيجان فهؤلاء هم الذين تلقى الظلال على أصولهم.. حملوا بدورهم أسماء بلدانهم. فضاع بعض من هويتهم. ثم انفصلت تلك البلاد لغوياً عن بلاد العرب فضاع الباقي من الهوية... صاروا بعضاً من جماعة أخرى... وأدخلهم الجهل والنظرة السطحية في غير العرب.

أنريد الدليل؟ بعض من الأسماء تكفينا ... أعظم علماء الحديث في التاريخ العربي الإسلامي هم الأئمة . واضعو الكتب الستة صاحبا الصحيحين الإمام البخاري ومسلم النيسابوري ، وأصحاب السنن الأربعة ابن ماجه القزويني وأبو داوود السجستاني والترمذي والنسائي ... النظرة السطحية تحسبهم لفارس . وما فيهم إلّا البخاري من تركستان فأما مسلم فمن قبيلة قشير العربية ، وأما ابن ماجه فمن ربيعة ، وأما السجستاني فمن الأزد الأنصار . وأما الترمذي فمن شيبان وأما النسائي فمن قبائل سليم ...

وتتبع مئات الأسماء الأخرى فنجد عجباً ... ابن قتيبة الدينوري صاحب المؤلفات التي تزيد على الخمسين عربي كوفي ، ولكنه قضى عشرين سنة في القضاء بدينور فنسب إليها . أبو الفرج الأصفهاني ، صاحب كتاب الأغاني المشهور هو حفيد مروان بن محمد آخر خلفاء الأمويين ، أبو المظفر الأبيوردي الشاعر المعروف أموي سفياني . أبو النضر العياشي السمرقندي ، وحيد دهره في غزارة العلم من فقهاء الشيعة الإمامية وصاحب ما يزيد على مائتي كتاب ، عربي ، من بني تميم ، رضي الدين الصاغاني اللغوي المحدث صاحب معجم العباب الزاخر في ٢٠ مجلداً ، ومجمع البحرين في ١٢ مجلداً أخرى هو عدوي عمري ، من نسل عمر بن الخطاب ، ابن ماكولا الجرباذقاني من كبار الحفاظ والمؤرخين من نسل أبي دلف العجلي. تاج الإسلام السمعاني عبد الكريم المروزي صاحب كتاب الأنساب في ألفي صفحة وذيل تاريخ بغداد في ١٥ مجلداً وغيرها عربي تميمي . تاج الدين بن عربشاه المؤرخ قرشي من نسل عثمان بن عفان . الفيروز آبادي الشيرازي اللغوي صاحب القاموس من سلالة أبي بكر . ومثله فخر الدين الرازي صاحب مفاتيح الغيب ... الزنجاني عبد الوهاب النحوي المشهور عربي خزرجي ... ماذا أعدد؟ أعداد واسعة هائلة ورائي ...

تصالبت العروق بلى ! اشتبكت الأنساب بلى ! ولا عصبية في العرق

ولا تفاضل إلّا في التقوى ...

ولكن العرب المسلمين كانوا دوماً النسغ الحي والمبدع في كيان الحضارة العربية الإسلامية ...

فليذكر ذلك الذاكرون ...

« حلقة الذكر »

« حلقة الذكر » « التهليلة » ، « الزار » ،... كلمات لها مثيلات إذا ذكرت أو ذكرن انداحت في الخاطر صور متلاحقة أشتات من أجساد تتمايل بالإنشاد ودفوف تهتز وطبول تدق ، تدق ، وجباه تصعد وتهبط وأصوات كحزمة من أشرعة الريح تهتف : الله ! الله !...

لا شك أنها صور قد قاربت المغيب في المجتمعات الإسلامية اليوم . أضحت من نشوة الماضي. ومع أن جذورها في العقيدة والإسلام عائمة كبعض جذور الطحالب ، إلّا أن وجودها ودورها والأجواء في الحضارة الإسلامية واضحة واضحة . حتى لتبدو وكأنها كانت المظهر المادي للدين عدة قرون .

الجذور الأولى لهذه الصور مشتقة من أعمال الزهد ودنيا التنسك . رفض الدنيا فلسفة كبيرة ذات أشكال وفروع تعرفها مختلف الأديان والشعوب . البوذية سبقت المسيحية فيها . والمسيحية سبقت الإسلام .

أخبار نساك الهنود ، والصوامين منهم ، والفقراء وما يصنعون معروفة . كما وجد في البوذيين من يجاهد النفس حتى لينام على رؤوس المسامير . كذلك عرفت المسيحية من الرهبان النساك من أقام سبعاً وعشرين سنة على رأس عمود ــ أم لم يسمعوا بسمعان العمودي ؟

وكذلك فإن طريق الزهد ، وجهاد النفس ، ومحاولة الوصول المباشر إلى رحاب الله . عرفته بدورها المجتمعات العربية الإسلامية : إنه ما نسميه بالتصوف .

والمتصوفة الأولون في التاريخ العربي الإسلامي فلاسفة على نحو من الأنحاء. آمنوا بوحدة الوجود، بوحدة الخالق والمخلوق، بالحلول. قضوا الحياة في التفكير والعلم والبحث. احتقروا المادة والدنيا لينفذوا بمجاهدة الذات إلى ما وراءها. ليصلوا إلى الواجب الوجود: الله. من أقطاب هذا السلوك الحارث ابن أسد المحاسبي من رجال القرن الثالث، وأبو نصر السراج، والحسين الحلاج من القرن الرابع، وعبد الكريم بن هوازن القشيري، وأبو سعيد بن أبي الخير من القرن الخامس، وأبو حامد الغزالي من السادس، ومحي الدين بن عربي صاحب الفتوحات المكية في القرن السابع.

ثم شحت هذه السلسلة على الأيام فلا نكاد نجد منها في القرون التالية من الأسماء البارزة سوى ابن الفارض وعبد الغني النابلسي.

غير أن المتصوفة لم يكونوا جميعاً في هذا المستوى الفكري والفلسفي، ثمة سلسلة أخرى منهم رافقت تلك السلسلة الأولى في تاريخ العرب الإسلامي وكانت عدتها العمق الروحي التهجدي لا العلم والفلسفة. والرياضة الروحية لا التفكير والكتاب... وقد ترافق غياب الأولين مع زيادة هؤلاء الآخرين.

وإذا كان رجال السلسلة الأولى قد اصطدموا بالشعور العام. أثاروا عداء الجماهير الإسلامية حتى انتهى بعضهم إلى القتل والصلب، كالحلاج وابن عربي، فإن رجال السلسلة الثانية كانوا بالعكس، أحباب الناس وموطن القداسة فيهم، ومجال مضايقة الحكام عن اعتقاد أو عن رياء. وقد لحقهم الخيال الشعبي بالقصص الكثير. منهم أولياء الله ومنهم أصحاب الخوارق والكرامات حتى بعد الموت. أولسنا نجد في كل ركن قبراً وقبة وشباكاً تقدم عنده النذور وتربط عليه الخرق لقضاء الحاجات؟ إنك لتستطيع أن تقرأ الكثير من هذه القصص في تذكرة الأولياء للعطار الهمذاني، وفي تلبيس إبليس لابن الجوزي وطبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي النيسابوري وطبقات الصوفية الآخر لعبد الوهاب الشعراني.

ماذا تحكي هذه القصص؟ إن تحليلها يكشف أنها كانت العديل النفسي والجواب على حاجات الناس وآمالهم. تماماً كما تعبر الأحلام عن رغبات النفس الخبيئة، كذلك كانت قصص الكرامات والمعجزات. فهل نعجب إذن أن يتمتع هؤلاء المتصوفة بأعرض الجاه في المجتمع وأن صار بعضهم، في جماعته الواسعة، وفي كثرة الكرامات ذا قوة سياسية واجتماعية واسعة مرهوبة، وأن منحه الناس لقب «السلطنة» الذي يحمله أعلى رجال الحكم في تلك العصور؟ بل لقد قسم الناس الملكوت الروحي للدنيا بين هؤلاء السلاطين الروحيين، تماماً كما يتقسم السلاطين ملك الأرض دولاً ومماليك فللشيخ الكيلاني جانب وللرفاعي جانب وللسيد البدوي أو السلطان أبو العلا أو السلطان المولوي جوانب.

وقد استفاد معظم هؤلاء المتصوفة أو تلاميذهم مما وصلوا إليه من القوة والمكانة فنظموا جماعاتهم التنظيم التسلسلي الذي كان لرتب الجيش أو لوظائف الإدارة. فهناك الشيخ أو شيخ السجادة والمرشد والمقدم والنقيب والخليفة والمريد. وإذا كان قد درج بين أمثالنا المتداولة: مثل يقول كل شيخ وله طريقته... فإنه الواقع الذي كان... وقد ابتكر كل شيخ لنفسه طريقة في تنظيم الجماعة التي تطوف به. وفي الرقابة الخلقية، وفي الجباية المالية، وحفلات الدخول في الطريقة، وطرق جهاد النفس. وهكذا امتلكوا الزوايا والتكايا والأربطة والعقار والأوقاف، وابتكروا وسائل التعاون وتفننوا في الإذكار والأوراد ومواعيدها، وفي الإنشاد في حلقات الذكر وإحياء الموالد والأعياد ومواسم الأولياء والمناسبات الدينية والمواكب السنوية بل والرقص الإيقاعي... ألسنا نذكر الجماعة المولوية؟. وقد جاء وقت كانت فيه هذه الطرق هي التنظيمات الفعالة والتعاونية الوحيدة ضمن المجتمع الإسلامي في العهد العثماني... لقد كانت دفاع المجتمع عن نفسه، وكان طريقته في رد الأذى والفساد عن قيمه، وإقرار الأمن والعدل المفقودين أو شيء من هذا أو ذاك... كان دخول

الطبقات الفقيرة في سلك الطرق الصوفية طريق الأمان ... أليس شيخ الطريقة في اعتقادها، يستطيع بسلطانه الروحي وكراماته الخارقة أن يمحق الظالمين ويدفع عبث الشياطين، وينجي من نكبات الأقدار. عدا أنه بالإضافة إلى ذلك كله سبيل الوصول إلى الله؟... ومن لا شيخ له فالشيطان شيخه!

وإذا اندثرت الآن (أو تكاد تندثر) حلقة الذكر... فلأن وظيفتها الاجتماعية قد انتهت... وإذا كانت تثير الآن الدهشة والاستطراف إن ظهرت فلأن الدور الذي كانت تؤديه قد مات.

ألم نقل أنها صور من نشوة الماضي؟...

« السيف والكتاب »

أبو تمام الشاعر الذي نعرف أطلق ذات يوم مقولته التي ما تنفك تنتقل على الشفاه.

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب!

أساتذة الأدب علمونا أنه كان يريد إقامة المفاضلة بين السيف والكتاب. ويخيل إليّ أن الشاعر كان يتحدث عن قمة السلطة فهي محصورة بين هذين القطبين: الجند والعلماء.

منذ عهد أبي تمام ظهر هذان القطبان بوضوح فما برح المجتمع الإسلامي بعد ذلك أسير هذه الثنائية السلطوية قروناً بعد قرون. وإذا كان تسلط الجند وآلة الحرب على الحكم والسلطان ظاهرة معروفة في التاريخ كله بعرضه والطول، ولدى مختلف الأمم. دوماً كان السيف هو الذي يعرض نفسه، فإن ما ميز المجتمع الإسلامي أن الجماعة الثانية في القيمة والمكانة ضمنه كانت العلماء... وحده المجتمع العربي الإسلامي، بين مجتمعات الدنيا كافة، عرف هذه الظاهرة الفريدة. المجتمعات الأخرى عرفت بجانب طبقة المحاربين بعض الطبقات المغلقة، وعرفت نبالة الدم أو العقيدة أو الحزب أو الجيش.

أما المجتمع في تاريخ العرب المسلمين فمكان الكتاب فيه يأتي في القمة بجانب السيف... وبكل معاني الكتاب.

وليست القضية دينية فحسب. ولكنه الطموح الإنساني في سباق المنافسة والتعويض. منذ القرن الثالث الهجري، أي منذ حوالي أحد عشر

قرناً، وقعت السلطة بيد الجند في الدولة الإسلامية. ثم جاء توالي الأخطار الرهيبة على العالم الإسلامي وخاصة من الفرنجة الصليبيين، ومن المغول، فأعطى قيادة الحرب، وقيادة الحكم معها بالطبع لهؤلاء الجند. أيهم أن نقول هنا إن انفتاح الإسلام، في تلك الفترة على البدو والترك، وانفتاح البادية التركية على الإسلام هذا وذاك، جعل هؤلاء الجند من هؤلاء الترك؟ المساواة التي تفرضها العقيدة الإسلامية وقوة الترك البدوية التي لم تكن تؤهلهم لأن يكونوا أكثر من جند للسيف. هذه وتلك جعلتا في واجهة العالم الإسلامي تلك الأسماء الغريبة ولكن المسلمة التي كان منها طغتكين وبيبرس ونشتكين وطولون وآق سنقر وزنكي.

فماذا فعلت الجماهير العربية الإسلامية؟ اتجه طموح الطامحين فيها إلى العلم. أضحى الكتاب هو سلم الصعود إلى القمة ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير﴾. وكان الطريق، في هذا الباب مفتوحاً وبالمجان للجميع. بعضهم يسلكه عن تقى وورع في الدين والكثرة الكاثرة تركض عليه لأنه السبيل إلى الوظائف في الدولة وإلى الجاه في الناس.

الأعداد الكبيرة التي كانت تخرجها حلقات التدريس في الجوامع أو مجالس الشيوخ في المدارس، كانت تصب عند حساب ميزان القوى في الكفة الأخرى المقابلة للجند: بعضها يمسك سلك الإدارة ومنهم الوزير والكاتب وصاحب الإنشاء وصاحب الديوان والعمال وأرباب الأقلام، وبعضها يتسلم دارة القضاء فمنهم القاضي وصاحب الفتوى والشاهد وكتاب القضاء والمباشرون... وبعضها في الأعمال الدينية فمنهم الأئمة والمؤذنون والقائمون على الأوقاف... وبعضها في ميدان الخدمات العامة فمنهم الطبيب والصيدلاني وبائع العقار!... وبائع التعاويذ!!.

وهكذا أقيم التوازي في الحضارة العربية الإسلامية بين السيف والكتاب

بين طغيان المرتزقة والمغامرين، وبين سلطة العلماء المعنوية والروحية وسط التطاحن على الحكم والقوة والرزق. واستطاعت الجماهير الإسلامية أن تأخذ باليسرى ما فقدته بالأخرى.

صحيح أن كثرة واضحة من العلماء حومت تحويم الذباب حول موائد الحكام. أكلت من خبز السلطان وضربت بسيفه. لكنا أولاً إنما نتحدث عن وصولها إلى السلطة في المجتمع على مركب من ورق الكتب، وليس عن تحالفها المصلحي مع الحاكمين ثم... من ذا الذي ينكر أن جمهرة أخرى من العلماء وقفت تقيم الإسلام وأحكامه وتذكر بمثله العليا وتؤلف في ذلك، وتتكلم، وتكافح ضد الانحراف والفساد الاجتماعي؟ وإن جمهرة ثانية ثارت في وجه الطغيان والظلم، وقفت في وجه السيف؟ وهل تغيب عنا صور الأشعري وابن حنبل أو صور ابن تيمية وابن دقيق العيد؟... لو دققنا في صفحات تاريخنا لوجدنا أن الكثرة الكاثرة من الحكام، حتى المغامرين والمرتزقة منهم، كانوا هم الذين يتملقون العلماء باعتبارهم أهل الدين وقادة الشعب وأن السيف كان، في أعماقه، يرتجف خوفاً من ورقة الكتاب.

كانت ورقة العالم في كثير من الأحيان أشد قوة ومضاء من شفرة السيف. وهذه مرة أخرى، ميزة لم تعرفها إلّا حضارة الإسلام.

« أهل الحرف »

من عادتنا حين نتحدث في الحضارة العربية الإسلامية، أن تركض عيوننا والألسنة إلى الأسماء الكبرى فيها. ثمة أعلام كالنجوم تلمع، تغني، تسرق الانتباه في الفلسفة والعلم والفقه والشعر: ابن سينا، الطبري، ابن رشد، الفارابي، ابن نفيس، ابن الهيثم، جابر بن حيان، الكندي، جعفر الصادق الشافعي. وكوكبة الشعراء: جرير وأبو نواس وأبو تمام والمتنبي والمعري... ولكل من هؤلاء أثره الضخم في الفكر العربي الإسلامي وفي الكيان الحضاري العربي... إن وراءهم قافلة من الكتب والمؤلفات هي أعمدة ذلك الكيان وقوامه الفكري...

غير أن في المتاحف وعلى امتداد الأرض العربية الإسلامية آثاراً حضارية وبقايا من الإبداع الإنساني العربي ليست أقل شأناً ولا قيمة. صنعتها جماعات أخرى، ممحوة الأسماء والأخبار غمرها الليل والنسيان... والناس يمرون ببقايا أعمالها معجبين، مدهوشين... لكنهم قلما فكروا لحظة بصانعيها. ولقد ننسب أعمالها إلى الملوك والأمراء الذين عاصروها لكننا، في كثير من نكران الجميل ومن الجهل والإهمال الطبقي، لا نذكرها بكلمة وهي صانعة الحضارة المادية كلها: إنها أصحاب الحرف!

ما يرتفع على الأرض العربية والإسلامية من مآذن كالحور، وأقواس كالأكف الضارعة إلى الله، ومحاريب محيرة، ومن زخرف يتوهج بالعبقرية، وقاشاني بديع وقلاع قدت من الصخر وجسور وأقنية ومدارس وقصور هي للنعيم المقيم... كلها من صنع هؤلاء! والسيوف المنقوشة والدروع المحلاة

بالجواهر وقناديل الزجاج والفضة وأواني الخزف وآلات الموسيقى، والخطوط لا آنق ولا أروع، والآرائك دنيا من الحفر والنقش والتكفيت، والأقداح والطاسات والأباريق والصواني والصناديق والرخام المجزع والمصابيح والسجاد والستائر الموتقة هذا إلى آيات النسيج، ملونة مزخرفة بين عتابي ودمقسي وموصلي ودبيقي وتنيسي ودامسكو... كلها من آلاء هذه الجماعة المغمورة: أهل الحرف.

ونقول بنى الوليد بن عبد الملك وبنى المنصور أو المعز أو عبد الرحمن الناصر وما بنوا في الواقع، وإنما هؤلاء هم الذين بنوا وزينوا ونقول صنع هذا السيف لفلان أو في عهد فلان ونسج هذا الحرير وزخرفت هذه الأريكة، وإنما هؤلاء هم الجنود المجهولون الذين يبتلع جهدهم وأذواقهم والعبقرية غيرهم من الطبقات العليا...

وبناة الحضارة المادية في الإسلام هؤلاء — وإن أهملهم التاريخ — لم يكونوا كمية مهملة، ولا على هامش الحياة، ولكنهم كانوا عصب الحياة في المدن. كانوا دنياها ومادتها المبدعة. وتنتظم كل حرفة نقابة تجمع أفرادها كأنهم أسرة واحدة. إنها لا تحمل معنى النقابة اليوم ولكن تحمل معنى الجماعة التعاونية. وكثيراً ما يحمل نقيب الحرفة وظيفة شيخ العشيرة ولا تعود إليه أمور الحرفة وحدها، ولكن حتى الأحوال الشخصية لأفرادها من زواج وطلاق، وحتى الأحوال الاقتصادية من فقر أو دين أو مظالم، وحتى الأحوال السلوكية من جريمة أو غش أو خدش للمروءة... فإذا هبط البلد نجار غريب نزل على نقيب النجارة يؤويه ويتدبر له العمل حتى يرحل. وكذلك البناء والحداد والحذاء والحائك... وإذا كان للأشراف نقاباتهم التي تصونهم عن بذل ماء الوجه، وكان القضاة يشكلون سلكاً متضامناً فيما بينه، وكان للنجارين نقابة يتولاها شاه بندر النجار فأهل الحرف كانوا يجدون في إطار النقابة الأمان الاجتماعي الكامل وأسوار الدفاع...

وكثيراً ما كان أبناء الحرفة الواحدة ينتسبون إلى طريقة صوفية واحدة رفاعية أو كيلانية أو شاذلية إمعاناً منهم في الاندماج التعاوني حتى في باب التعبد . كما كانوا كثيراً ما يؤلفون الكتب في صناعاتهم وأسرارها . وقد يدهشنا كثرة ما ألف أهل الحرف الإسلامية في الحرف فلدينا العشرات بعد العشرات من الكتب حول صناعات الجلد وأدوات الموسيقى والنقش والسيوف وصناعة الزجاج والورق والصياغة والصابون والعطور والقاشاني والسجاد وسك النقود والبناء والأخشاب . كتبت بمصطلحات هذه الحرف لأهل هذه الحرف .

وإذا كان الفكر العربي الإسلامي من صنع عدة آلاف من الرؤوس الضخمة التي نعرف ، فإن الحضارة المادية كانت من صنع مئات الألوف بل الملايين من الحرفيين الذين نجهل .

وهؤلاء هم الذين أعطوا الحياة العربية الإسلامية خلال عشرة قرون من الأندلس حتى السند طابعها المونق ولونها من الرفاه والنعيم والأناقة والفن ــ وإن ظلوا هم أنفسهم في عتمة الليل ولم يعرفوا الرفاه ولا النعيم !...

تلك الأيدي التي تستحق أن تلف بالحرير اهترأت بعد أن منحتنا هذه الحضارة الباذخة . فهل بعد هذا سنظل نقول : بنى المنصور وصنع قلاوون ؟

« أعمدة العلم »

الطبري ابن جرير ، كبير مؤرخي العرب المتوفى سنة ٣١٠ في مطالع القرن الرابع الهجري يذكرون عنه أنه ظل أربعين سنة يكتب كل يوم أربعين ورقة وأنه قال لأصحابه : أتنشطون لتفسير القرآن قالوا كم يكون قدره ؟ قال : ثلاثون ألف ورقة أي ٦٠ ألف صفحة فقالوا هذا مما يفني الأعمار قبل تمامه . فاختصره في نحو ثلاثة آلاف ورقة (٦ آلاف صفحة أي العشر وأملاه عليهم في ثماني سنوات . ثم قال : أتنشطون لتاريخ العالم من آدم إلى وقتنا هذا . قالوا كم قدره ؟ فذكر نحواً مما ذكره في التفسير فأجابوه بمثل ما أجابوه من قبل فقال : إنا لله ! ماتت الهمم واختصره في نحو مما اختصر التفسير . وأملاه في نحو عشر سنوات ... ماذا تقاضى الطبري على موسوعتيه الضخمتين في التفسير والتاريخ ؟... لا شيء !

الطبري ليس أكثر من مثال عادي . تاريخ العرب يعج بالآلاف من أمثاله . هم أعمدة العلم العربي وصائغو الأفكار . وإذا كان العلم ـــ كما قال بعض الساخرين المعاصرين ـــ مجرد ثرثرة مفيدة . فعلماء العرب كانوا ثرثارين بامتياز ... كانوا أول وأكثر الثرثارين ثرثرة في التاريخ . ما مر في تاريخ البشرية قبل العصر العربي الإسلامي عصر كان فيه الإنتاج الفكري بمثل هذا الخصب والكثرة والتنوع . منذ انتشر الورق بين الأيدي في أواسط القرن الثاني الهجري ـــ لم يكن لخصب الفكر العربي من حد . كالسيول تدفق . كألوان الدنيا تنوع . كجنون الزهر في الربيع هب بكل فج . في أواسط القرن الرابع خطر للوراق البغدادي : ابن النديم أن يحصي ما يعرف من مؤلفات المؤلفين في

كتاب فجمع في حدود ما عرف أسماء ما يزيد على اثني عشر ألف كتاب . كتابه المعروف : الفهرست وثيقة للتاريخ تحصي حصيلة قرنين من التأليف . ومع ذلك فلم يفته الكثير من كتب المشارقة فقط ولكن فاتته أيضاً ــ وهو البغدادي ــ كتب المغاربة ، الأبعدين ومؤلفات الأندلسيين وهي بدورها بالألوف ... وكل ذلك مخطوط ، خط اليد ... يومذاك لم يكن ثمة طباعة ولا من يطبعون ... ماذا تراه صار العدد في القرون التالية وحتى مطالع العصر الحديث ؟ وهي عشرة قرون زاد فيها العلماء أضعافاً مضاعفة وزادت المدارس والمعارف والمعلمون والمتعلمون ؟ من المؤسف أنه لم يظهر من بعد ذلك من يتابع عمل ابن النديم سوى اثنين : ضاع عملهما ومؤلف عثماني كان كتابه ــ رغم الجهد ــ مملوءاً بالنقص ...

ولقد تحسب أنت وأحسب أنا أن كلمة الكتاب ، في هذه الأرقام تعني الكتاب العادي وأن الكتب الضخمة ذات المجلدات العديدة والموسوعات العلمية الكبرى هي بنت المطبعة وبنت هذه العصور الحديثة ... فماذا ترى لو عرفت أن كتاب الفنون لمحمد بن عقيل البغدادي بلغ أكثر من أربع مائة مجلدة لم يبق لنا منها سوى واحدة ؟ وأن كتاب ديوان الإسلام لابن المارستانية بلغ مائة مجلد ؟ وأن تاريخ دمشق لابن عساكر جاء في ثمانين مجلدة ؟... وأن كتاب الفقه الإباضي مائة مجلد ؟ وأن تفسير ابن عربي في ستين مجلدة ؟ وذيل تاريخ بغداد لابن الفوطي في خمس وخمسين ، ومرآة الزمان لسبط ابن الجوزي في أربعين ... أما الكتب التي تبلغ عشرين أو ثلاثين مجلدة أو حولها فليس أكثر منها . ومن ذلك تفسير الأصفهاني ، وتفسير ابن الجوزي ، وكتاب الوافي بالوفيات للصفدي ، وتاريخ الإسلام للذهبي ، والموسوعات الكبرى المشهورة : الأغاني للأصفهاني ، ونهاية الإرب للنويري ، ومسالك الأبصار للعمري ، وصبح الأعشى للقلقشندي ولسان العرب لابن منظور وما هذه إلَّا أمثلة عابرة ... لباب يفوت الإحصاء !

وبالمقابل فإن عدداً كبيراً من علماء العرب بلغ من الخصب الدرجة التي أناف فيها، بالإنتاج العلمي على ٤٠٠ كتاب أو خمس مائة: جابر بن حيان في الكيمياء له ما يزيد على ثلاثة آلاف كتاب ورسالة. ابن الجوزي الإمام الواعظ والسيوطي الإمام الآخر لكل منهما ما يزيد على خمس مائة مؤلف. ابن الدبيثي وابن الفوطي وابن النجار كل منهم مجموع مؤلفاته تزيد على ١٢٠ مجلدة. أما أولئك الذين تحوم مؤلفاتهم حوالي الخمسين فلا أكثر منهم في العدد... إنا نجدهم بالعشرات في جميع العصور.

ونسأل ماذا كسب هؤلاء من المادة مقابل هذا الجهد؟ والجواب لا شيء، بعد بناء الحضارة الفكرية العربية، سوى العناء... ندر منهم من تلقى المكافأة على جهده. بنوا حضارة العرب لبنة لبنة ثم لا جزاء... إن لم يكن النكران والأذى أحياناً هو بعض الجزاء فقد أوذي ابن رشد على جهده الفلسفي. وانتحر ابن سبعين حين تزايد الشك في إيمانه. وعوقب الحسن بن الهيثم على عمله في البصريات والطبيعيات. ورمي علي بن يونس بالجنون لما قدمه في الرياضيات والفلك... ولكن قافلة العلم كانت رغم ذلك تسير.

بقي أن نقول إن ٧٠٪ من إنتاج العرب العلمي قد ضاع بالنكبات. وتحت سنابك المغول وبين مخالب الجهل والتخريب في العصور المتأخرة. ذهب ثلاث أرباع ذلك الجبروت العلمي الضخم... ومع ذلك. مع ذلك كله فإن للعرب اليوم في مكتبات الدنيا بين نيويورك ونيودلهي واستامبول ولندن وروما وفيينا وبرلين وفي بلاد العرب ذاتها ما يزيد على مليوني مخطوط..

مليوني مخطوط تنتظر من يكشف عنها! ويقول: هاؤم اقرؤا كتابيه!

« الاحتساب »

حين تتقدم الصف ببطاقة التموين ، أو تنظر إلى قائمة الأسعار الإلزامية لدى القصاب والبقال ، أو تشهد الوحدات الصحية تصادر اللبن المغشوش ، أو تسمع في الإذاعة بتدبير حكومي يتعلق بالنقد أو الغلة أو الأخلاق العامة أو المرور ... فإنك لا شك على الاعتقاد بأنها من آلاء النظم العصرية في الحكم . التدخل في تنظيم معائش الناس ، مكافحة الغش ، وتوفية الميزان ، منع التطفيف في الكيل ، والحفاظ على الآداب قد تكون في ظن أغلب الناس نتيجة التطور الحديث في مفهوم الدولة وواجباتها .

ومع ذلك فقد يفاجئنا أن نعلم أن الحضارة العربية الإسلامية قد وصلت في تنظيمها للشؤون المدنية وفي إشرافها على معائش الناس الدرجة التي خلقت فيها هذه المصالح في جهاز الدولة . الفهم الواسع والسامي لمعنى الآية الكريمة : ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾ جعلهم لا يقتصرون فيه على الأمور الدينية بل جعلهم بالعكس يرفعون أمور المعائش وعلاقات الناس اليومية إلى المستوى الديني . ومن هذا أو ذاك وجدت وظيفة اشتقت من القضاء وتحت إشراف القاضي هي وظيفة المحتسب ...

ماذا كان يعمل ؟ إذن فلننظر معاً في هذه القائمة من الأعمال التي تتوزعها اليوم عشرات الدوائر والمصالح :

ـــ البلدية مثلاً هي التي تنظم الطرقات وتمنع التجاوز عليها وتحدد ارتفاع

البيوت وتمنع إطلال بعضها على بعض وتنقض الأبنية المتداعية وتمنع سكناها .
ـــ دوائر الشرطة تهتم بمشاكل المرور في الطرقات وتمنع عرقلتها بالباعة والأحمال .
وشرطة الآداب تحفظ الآداب العامة وتضرب على أيدي مخالفيها ...
ـــ قضاة الصلح يقضون في الخصومات المحدودة وفي الدين الممطول والتعديات الصغيرة .
ـــ دوائر معينة من وزارة التجارة تنظر في مكافحة الاحتكار وفي تحديد الأسعار وفي قمع الغش بأنواعه وألوانه ، وفي صحة المكاييل ودقة الموازين والأوزان وويل للمطففين .
ـــ دوائر خاصة من وزارة الصحة تشرف على نظافة المطاعم والمشارب والمخابز وعلى أعمال السقاية والسقائين ، وعلى العمل الأمين من قبل الأطباء والصيادلة وبائعي الدواء والعقار .
ـــ دوائر مالية خاصة تراقب النقد والنقود والزيف فيها وعمل الصرافة والتحويل ...
ـــ دوائر من وزارة التربية تراقب مدارس الصغار وتمنع ضربهم .
ـــ دوائر من الأوقاف تشرف على نظافة المساجد وتنويرها وعدم إساءة استخدامها .
ـــ جمعيات بكل مكان عملها الرفق بالحيوان .

هل أطلت؟ هذه الأمور جميعاً كانت تعرفها المدينة الإسلامية تعرفها دمشق وبغداد ونيسابور وترعاها في المشرق ، كما تعرفها وترعاها قرطبة وغرناطة في المغرب ... وهنا وهناك كان يشرف عليها جميعاً شخص من الثقاة الثقاة له أعوان وغلمان : إذا نزل الأسواق ، وبيده السوط ركض الهمس بين الدكاكين والمارة : جاء المحتسب !!

كتب الحسبة كانت تعلم المحتسب جميع طرق الغش في العقار أو النقد

أو المأكولات ليكتشفه . له مراقبة الكتاتيب لئلا يضرب الأطفال . كما أن له مراقبة السقائين والحماميين وحفاري القبور وأهل السفن لئلا يزيدوا حمولتها فتتعرض للغرق والتهلكة . وله رقابة الأطباء وبائعي العقار لئلا يخدعوا الناس ، وله مراقبة الصناعات المختلفة ... ولكل صنعة عريف مسؤول في السوق ... ولكل صانع علامة معروفة أي (ماركة مسجلة) وللمحتسب الحسبة على النساجين والدباغين والفرائين وعلى سماسرة الرقيق والجواري والدواب والدور . والرقابة على الوعاظ بل على الولاة والأمراء... ومن أطرف أعماله : منع تناطح الكباش وصراع الديكة وصياح السمان ... رفقاً بالحيوان والإنسان !

فقد كانت من ألعاب الرهان ... كسباق الخيل !

كانت حياة المدينة المعاشية بيد المحتسب يقيمها على الصراط السوي المستقيم . ومع أن نظم الحكم الإسلامية لم تكن تشرف على تنظيم الاقتصاد إلّا أنها كانت لا تكتفي في أيام الأزمات بالمحتسب وسلطاته . سنوات القحط والمجاعات كثيراً ما كانت تضرب هذا الإقليم أو ذاك . بعضها كان يلجئ الناس إلى أكل الهررة والفئران وأكثر من مرة عرفت القاهرة ودمشق وشيراز ونيسابور وغيرها أكل لحم البشر ... وفي هذه الكوارث كانت الحكومة تصادر الغلال ، وتضرب المحتكرين ، وتفرض الأسعار الجبرية عليهم . لكنها بالمقابل كانت أحياناً تساعد المصدرين عند زيادة المحاصيل . تمر كرمان كان يحمل إلى خراسان مناصفة بين أصحابه والحمالين لكثرته فكان السلطان يعطي عن كل جمل ديناراً .

فإذا وقفت بالصف ببطاقة التموين ، أو واجهتك قائمة الأسعار الإلزامية ، أو رأيت سلطات الصحة تراقب الأسواق ، أو الشرطة تراقب الأخلاق ، فلعلك تذكر أنها من صميم التراث الحضاري الذي نجر وراءنا ... وأنها من الاحتساب العربي الإسلامي القديم .

ومن باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

« دنيا الكتاب »

منذ ٦٠٠ سنة كانت مكتبة كلية الطب في باريس أصغر مكتبة في الدنيا ... كانت تتكون من مؤلف واحد فقط . وكان الكتاب مقيداً بسلسلة ضخمة من الحديد لئلا يسرق . وقد أراد ملك فرنسا استعارة هذا الأثر الطبي ذات مرة ليستنسخ منه نسخة يستخدمها أطباؤه . فاضطر أن يدفع تأميناً للكلية يبلغ ١٠٠ دينار من الذهب و١٢ قطعة من الفضة ...

كان هذا الكتاب الكنز هو كتاب الحاوي في الطب . وصاحبه هو أبو بكر محمد بن زكريا الرازي المتوفى سنة ٩٢٥م أي منذ ألف وسبعين سنة ونيف ويستطيع الكثيرون اليوم أن يستغلوا هذا الخبر ... وأن يفخروا بأن لديهم مكتبة تساوي مكتبة كلية الطب الفرنسية القديمة ، أو ضعفها مرتين أو ثلاثاً ... لكني لا أتحدث لهؤلاء . وإنما الحديث اليوم عن المكتبات والمكتبات العربية بخاصة في التاريخ ... لهواة الكتب والعلم .

المكتبة الكبرى والوحيدة التي تزغرد شهرتها في كل التاريخ القديم هي مكتبة الإسكندرية . يروون والمبالغة هنا فاضحة أنه كان فيها مائة ألف كتاب . والرقم مستحيل . لا لأنه لم يكن هناك مائة ألف مؤلف وكتاب في العصور القديمة ، ولكن أيضاً لأن هذه الكمية من الكتب ، لم تكن تكتب إلّا على الجلد أو البردى ، وكانت تحتاج إلى بناء يحوي على الأقل ٣٥٠ غرفة للكتب ... وقد اندثرت هذه المكتبة تماماً قبل الفتح العربي بقرنين أو ثلاثة قرون ... بعد أن احترقت مرتين .

وربما كان القصر الإمبراطوري في الصين في تلك العصور يحوي بدوره

مكتبة ضخمة لسنا ندري عنها شيئاً . فقد كان من التقاليد الإمبراطورية هناك ألا يكتب مؤلف كتاباً إلّا ويودع نسخة منه للباب الأعلى الإمبراطوري ...

أما الحضارة العربية فقد اشتقت من تقديس كتاب اللّه تقديس الكلمة وتقديس الكتاب . العرب أول أمة بالغت في العناية بالكتاب . فلا يكاد يرتفع بناء المسجد حتى تكون له مكتبته الصغيرة ولا يكاد ينبل بيت من البيوت حتى تكون المكتبة قد احتلت ركناً منه ... وقد هبطت صناعة الورق على العرب كالنعمة الفردوسية ... لتصغر من حجم الكتاب جداً وترخص من سعره جداً ولتسمح بجمعه الواسع جداً .

وأخبار المكتبات في التاريخ العربي رائعة مدهشة .

ولن أذكر دار الحكمة في بغداد ، تلك التي كان المأمون يعطي وزن الكتاب فيها ذهباً ... إن حديثها معروف . ولكن هل سمعتم بمكتبة الحكم الثاني المستنصر في قرطبة؟ كان فيها نصف مليون من الكتب جمعها ذلك الخليفة العالم وعلق بنفسه ألوان الهوامش والحواشي عليها ...

ومكتبة الخلفاء الفاطميين في القاهرة؟ كانت تشغل اثنتين وأربعين غرفة من القصر الفاطمي الذي يشبه اليوم المدينة الصغيرة ... وتزيد عدة الكتب فيها عن مليونين . لنذكر فقط أنه لم يكن يومذاك طباعة ولا طابعون . وأنها مليونان من الكتب المنسوخة بخط اليد منها عشرون نسخة من تاريخ الطبري والنسخة في عشرة مجلدات ومنها ٦٥٠٠ مخطوطة في الرياضيات و١٨ ألفاً في الفلسفة ! . البابا سلفستر الثاني الذي وصل البابوية سنة ٩٩٩ قال عن مكتبة المستنصر الأموي المماثلة للمكتبة الفاطمية :

« من المعلوم تماماً أنه ليس ثمة أحد في روما له من المعرفة ما يؤهله لأن يعمل بواباً لتلك المكتبة !

أهي مكتبات للخلفاء؟ إذن فتعالوا إلى من هم دونهم من الأمراء والكبراء :

آل عمار قضاة طرابلس وحكامها قبيل الحروب الصليبيـة كانت مكتبتهم تحوي ما يزيد على مائة ألف مجلد (وقيل ٤٠٠ ألف) وكان يعمل فيها ليل نهار ثمانون نساخاً ... وكان من جرائم الصليبيين التي يحاولون دوماً طمسها أنهم أحرقوا هذه المكتبة عن آخرها حين احتلوا طرابلس في مطالع القرن الثاني عشر ...

ناصر الدين الطوسي في مراغة بإيران جمع في المرصد الفلكي الذي أقيم له ٤٠٠ ألف مخطوطة. الوزير المهلبي ترك عند وفاته سنة ٩٦٣ مكتبة فيها ١١٧ ألف مجلد. الوزير الصاحب ابن عباد كانت مكتبته تضم ٢٠٦ آلاف كتاب. القاضي الفاضل كانت مكتبته مائتي ألف مجلد.

قبل العصر العربي وقبل الحضارة العربية الإسلامية لم تكن ثمة مكتبة في الدنيا تحوي عشر هذه الأرقام ولا عشر معشارها. وخلال العصر العربي كان الكتاب مجهولاً في أوربا، حتى الكتاب المقدس كان نادر الوجود جداً.

وكانت أعظم مكتبة في أي دير من أديرة الغرب أو قصر من القصور لا تزيد عن اثني عشر كتاباً مقيدة بالسلاسل خوف السرقة ...

هذه المكتبات العربية هي التي حملت من العصور الوسطى إلى العصور الحديثة خلاصة الحضارة الإنسانية وأعظم ما يحوي تراث البشر!

« طفولة الصواريخ »

من المؤكد أنك أنت أو أنا لم نسمع بأسماء عشرات الألوف من المخترعين والمبتكرين في مختلف ميادين المعرفة لكن الكثير منا يسمعون، ويسمعون كل سنة اسم نوبل. إنه اسم يتكرر ذكره سنة بعد سنة منذ حوالي مائة سنة. وليس لعبقريته في ابتكار المتفجرات دخل في هذا الذكر. ولكن لأنه يدفع منذ ذلك الوقت كفارة اختراعه المدمر ... جائزة نوبل لمن يخدمون الإنسانية.

على أن قصة التفجر واستخدامه في التحريك أو التدمير لا تبدأ بنوبل ولا تنتهي به. القصة تبدأ منذ حوالي ألف سنة، أو أكثر، وفي الصين، بتلك الخلطة الكيماوية التي نسميها البارود. وقد ظلت تمشي وئيداً وئيداً ثمانمائة سنة ثم قفزت في السنوات العشرين الأخيرة قفزة الرعب الأكبر إلى القمر ثم عبرت بالإنسان حدود الفلك ... ومنذ سنوات استطاعت أن تحط في كوكب المريخ. تكنولوجيا المحركات التفجيرية تطورت للدرجة التي أدخلت الكائن البشري عالم الأفلاك ... في السماوات. الصواريخ رغم وجه الشيطان فيها والرعب والدمار، لها الوجه الآخر المبدع الخادم للإنسان. أليس يتعلق الأمر أولاً وأخيراً بهذا الإنسان؟

وفي قصة التفجير أسهمت ثلاث من الأمم: الصين الذين ابتكروا البارود والعرب والغرب الذين استخدموه وطوروا جانب التحريك فيه. كان البارود أول الأمر لعبة في الأعياد حين عرفه العرب. وقد ظل لديهم لعبة

للأسهم النارية ... حتى أواسط القرن الثاني عشر حين بدأوا يستخدمون البارود في قذف السهام والكتل الحجرية. هذا التطور ظهر في بلاد الشام ومصر على ما يظهر. وقد أملته ودفعت إليه ظروف الدفاع اليائس ضد الخطرين: الصليبي من جهة والمغولي من جهة أخرى. كانت المنطقة العربية الإسلامية قد قضت ١٥٠ سنة تحارب صليبية الفرنجة الغربيين دون كبير خلاص وقد داهمها المغول من الشرق كالإعصار المكتسح ... أضحى الشرق العربي الإسلامي بين فكي كماشة رهيبة من الخطر. وابتكر المبتكرون، هذا التطور في السلاح ... ولعلهم استخدموه أول مرة ضد الحملة الصليبية السابعة ... هناك في جنوب دمياط ... قائد الحملة كان ملك فرنسا لويس التاسع الذي تسميه الكنيسة بالقديس لويس ... وحين بدأت القذائف المدفوعة تلمع في الفضاء وتهوي على الجند الفرنجي حجارة وحديداً شارف القديس اليأس. وكتب محارب فرنجي إسباني كان في تلك الحملة يقول: «كلما انطلقت قذيفة في الفضاء، كان الهلع الشديد يبلغ بملك فرنسا المبلغ الذي يصيح معه بأعلى صوته: مولاي الحبيب احمني وشعبي من الكارثة ...».

كان ذلك سنة ١٢٤٩. بعد ذلك بعشرين سنة، وكان قد تسامع بخبر هذه القذائف ملوك المغول الذين سقطت بغداد والخلافة العباسية بأيديهم في تلك الفترة نفسها ... وبينما كان قبلاي خان المغولي يقاتل في الصين محاصراً مدينة فان ـــ تشينغ تذكر سلاح القذائف البارودي ... وجاء به وانتصر. وأنهى في تلك المعركة آخر مقاومة من الصين القديمة.

ولكن من ذا الذي قدم له تقنية القذيفة البارودية؟ ونسمع الجواب من مؤرخ المغول ووزيرهم رشيد الدين يقول: إن قبلاي خان أرسل إلى بلاط السلطان في القاهرة يرجوه المعونة بإيفاد مهندس هذا السلاح ومبتكره وهو بعلبكي الأصل ومن أهل دمشق ... ويبدو أن تقدم السن منعت هذا الرجل

من السفر البعيد إلى الصين لكنه أرسل بدلاً منه أولاده الثلاثة: أبا بكر وإبراهيم ومحمد وهم الذين بنوا لقبلاي خان أمام فانتشينغ سبع آلات ضخمة دمرت مقاومة المدينة!

ودخل هذا السلاح على الفور كتب الحرب العربية. المخطوط العسكري الذي ألفه حسن الرماح في تلك الفترة حوالي سنة ١٢٧٥ كان يدور بصورة أساسية حول المقذوفات المدفوعات بالبارود. وقد صور فيه ما يسميه «بالرعاد» المزود بالمواد المتفجرة الدافعة، وتحدث فيه عن «بيض متحرك حارق ينطلق نارياً هادراً كالرعد... وما لبث عرب الأندلس أن ابتكروا ما صار يسمى لدى الفرنجة الغربيين بأنبوبة الشيطان... البارودة. وفي معارك بازا وآليكانت والجزيرة سنة ١٣٢٥، وسنة ١٣٣١، وسنة ١٣٤٢ أثارت قذائف العرب النارية هلع الأعداء. حسبوا من الهول أنها تؤذن بنهاية العالم...

وإذا ادعى برتولد شوارتز الفرنسيسكاني، بعد ذلك، وادعى معه الغربيون أنه مخترع البارود... فالحقيقة تضحك من هذا الادعاء... إننا نعرف أن الترجمات اللاتينية لكتب الكيمياء والحرب العربية هي التي علمت الغربيين من أمثال روجر بيكون، والبرتوس الكبير «سر» المزيج البارودي القاصف. وسر الألاعيب السحرية به وأن النبيل الألماني فون بولشتاد هو الذي أمد شوارتز بمعلوماته البارودية.

بقي أن نقول: إن نوبل دفع كفارة اختراعه أموالاً وتقاضى مجداً أما العرب... أما العرب فكانوا هم ضحية البارود وهم الكفارة فيما بعد... ألم يكن المدفع أنبوبة الاستعمار. لبلادهم عدة قرون؟

« حضارة الأرقام »

هذه الرسوم المنمنمة التي تسميها الأرقام والتي لا تعد أكثر من عشرة رسوم ولكنا نبني بها عالماً كاملاً من الهندسة والتوازن والتجارة والصواريخ والدراسة الاجتماعية والحساب والبناء والاقتصاد والكيمياء والعدالة ... هذه الرسوم التي تملأ كل جبين متزاحمة تنظم الحياة الإنسانية. على الصمت والخفاء وتتسرب بين الأصابع هينة عفوية الحركة كالأطياف ... هل فكرت يوماً كم قضى البشر من آلاف السنين للوصول إليها ... هل حدثك أحد أن البشر ظل يسعى وراءها سبعة أو عشرة آلاف سنة وأن عمرها لا يزيد على ألف سنة؟ وأنها أيضاً مما أذاعه العرب ...

بلى! حكاية الأرقام تبدأ مع حضارة الإنسان، كل أمة جربت عبقريتها في حل المشكلة: كيف يحددون الكثرة والقلة: المصريون كتبوا الأعداد خطوطاً عمودية مكرورة وخطوطاً أفقية، الفينقيون استخدموا أوائل كلمات الأعداد في كتابتها، وأخذ ذلك عنهم الإغريق. الرومان استخدموا الخطوط العمودية التي تتحول عند الأربعة إلى خمسة ناقص واحد والستة إلى خمسة زائد واحد وكذلك الأمر في العشرة. واستخدموا حرفاً للخمسين وحرفاً للمائة. وحرفاً للألف. فإذا شاء أحدهم أن يكتب ٩٩٨ كتب حرف الخمسمائة مرة وحرف المائة أربع مرات، وحرف الخمسين مرة وحرف العشرة أربع مرات ثم حرف الخمسة ثم ثلاثة خطوط عمودية ... أي كتب ١٤ رسماً ... العمود الذي أقامه الرومان تذكاراً لنصرهم البحري على قرطاجة نقش عليه مليونان ومائتا ألف رسم للتعبير عن عدد مليونين ومائتي ألف ... الصينيون وصلوا إلى

رمز الرقم ولكنهم كانوا يضعون بجانبه الحرف الذي يدل على مكانه من الآحاد أو العشرات أو المئات ...

وهكذا استحال على الأمم المختلفة القيام بالعمليات الحسابية الكبيرة. الهنود وحدهم هم الذين وصلوا إلى وضع رموز للأرقام التسعة ورمزوا للصفر بدائرة فارغة ... وجعلوا ترتيب الرموز على التوالي تعبيراً عن ارتفاع قيمة الرقم من الآحاد إلى العشرات إلى المئات إلى ... إلى ... وجاء العرب والحضارة العربية الإسلامية فالتقطوا هذه الرموز وذلك الترتيب. ولكننا نفاجأ بأنهم استخدموا شكلين من الرموز لا شكلاً واحداً ... البيروني العالم الفيلسوف الفلكي، الذي احتفل العالم الإسلامي منذ سنوات بذكراه الألفية والذي كان من أعرف الناس بالفكر الهندي، شرح لنا كيف اتخذ العرب نظام الأرقام الهندية دون أن يأخذوا عن الهند شكل تلك الأرقام ...

وعلى أي حال فقد انتشرت في المشرق أشكال الأرقام التي نستخدم نحن اليوم. الواحد: خط عمودي والاثنان خطان متصلان والثلاثة ثلاثة خطوط والأربعة أربعة والخمسة يرمز إليها بالدائرة وكذلك رموز الأرقام الباقية. أما الصفر فهو نقطة ...

وانتشرت في المغرب العربي مجموعة أخرى من الرموز الرقمية لعل أصلها الزوايا بين الخطوط المتكسرة فالواحد زاوية واحدة. والاثنان زاويتان. والثلاثة ثلاث زوايا .. وهكذا حتى التسعة وأما الصفر فدائرة فارغة ترمز للعدم ... هذه المجموعة المغربية هي التي انتقلت إلى أوربا والغرب، فهم يكتبون بها اليوم ويسمونها الأرقام العربية.

أول من أخذها لقومه في الغرب هو البابا سلفستر الثاني الذي وصل العرش البابوي سنة ٩٩٩ بعد أن قضى السنين الطوال يدرس في الأندلس. ولكن هذا البابا لم يستطع تقديمها أبداً للناس. الذي قدمها لهم هو العالم العربي الخوارزمي. ترجم كتبه في الحساب إلى اللاتينية فعرف الغرب من

خلالها الأرقام التسعة بأشكالها ونظامها وعرف الصفر ... ثم جاء تاجر من أهل بيزا في القرن الثاني عشر درس في المشرق العربي والمغرب هو ليوناردو البيزي فألف فيها كتاباً سماه Liber Abaci ... وما لبث الكتاب أن أضحى إنجيل الحساب ...

بلى ! تعثرت الأرقام العربية كثيراً وصارعت الصراع المرير حتى انتصرت على الطريقة الرومانية في الحساب التي اعتادها الناس ولكن سهولة النظام العربي في الأرقام فتحت له كل العقول . بل سخرت له من ينظم الأغاني لحفظ أشكال الأرقام الجديدة ... وتقول الأغنية :

الواحد كلسان الميزان والاثنان تشبه العكاز والثلاثة كذيل الخنزير والأربعة تشبه السجق أما الخمسة فشبه الموج والستة كالبوق والسبعة تشبه الحربة والثمانية كحلقات السلسلة والتسعة كالصولجان والصفر يشبه الخاتم ... والخاتم بمفرده لا قيمة له .

منذ خمس مائة سنة فقط انتصرت هذه الأرقام نهائياً في الغرب .

وخلال هذه القرون بنت هذه الأرقام التسعة المنمنمة مع الصفر ... حضارة الغرب القائمة اليوم ...

وتحسب أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

« ثرثرة العجائز »

ترى ما الذي يبعث العجوز على الثرثرة بالذكريات؟ سؤال ألقاه الفيلسوف الصيني لين يو تانغ الذي مات منذ عهد قريب ، وأجاب أنه الفراغ من العمل ... وأحسب أننا يمكن أن نجيب إجابة أخرى ليست أقل صواباً من الأولى أنه الإحساس بالزمن، بسعة الآن . بالبعد الرابع الذي يميز الكائن البشري . حين تصبح شجرة العمر مثقلة بالثمار يصبح العطاء حاجة لا منة . ويصبح الزمن أبعاداً وأثقالاً ومعاني من المعاني لا عبوراً من ثانية إلى أخرى ... وكما يتفاوت الأفراد في الإحساس بالزمن كذلك تتفاوت الأمم ... وإذا كان التاريخ ، كما قال مؤرخنا القديم ابن الجوزي : مرآة الزمان ، فليست تستوي الأمم في حب هذه المرآة أو في التمري بها أو حفظها . صحيح أن لكل أمة تاريخاً بل لكل كائن ... حتى المدن والأشياء لها تاريخها المجرور وراءها برغمها ، لكن مقدار تعلق هذه الأمة بالتاريخ أو تلك هو الذي يختلف . وإذا كان الهنود من أقل الأمم اهتماماً بتسجيل وقائع الحياة والأحداث ، فإن العرب بالمقابل قد يكونون من أكثر الأمم ، إن لم يكونوا أكثر الأمم ، انشغالاً بالتاريخ وشغلاً به ... الإحساس بالزمن يثقل كاهل هذه الأمة . يسحقها . كأنما هو محاولة سلبية للخلود ... كأنه البحث عن الخلود ولكن في الاتجاه الآخر ، ومن خلال الماضي والجذور لا المستقبل .

أتحسبون أنها مقولة من المقولات . أو شطحة نظرية تحتاج إلى الدليل؟
إذن فلنبحث الدليل ...

منذ حوالي مائة سنة أحصى أحد المستشرقين ــ فيما يقول ــ عدد المؤرخين الذين ظهروا في التاريخ الإسلامي وذكر أنهم حوالي ٥٠٠ مؤرخ خلال عشرة قرون . بمعدل مؤرخ واحد كل سنتين ... ولقد شاقني منذ سنوات أن أفحص صحة هذا الإحصاء . وفوجئت أن العدد الذي اجتمع لي كان عشرة أضعاف ذلك الرقم . اجتمع لي أسماء خمسة آلاف مؤرخ ... ولم ينته الإحصاء ! وأحصيت كتب التاريخ فإذا هي تزيد على اثني عشر ألفاً ... ولم ينته الإحصاء أيضاً !. وإذا كان بعض هذه الكتب رسالة صغيرة أو كتاباً محدوداً فإن بعضها يصل إلى مائة مجلد وكثير منها في الثلاثين والأربعين من المجلدات والكثير الكثير جداً في العشرات ... هذا وذاك يعني في الإحصاء أن كل سنة من سني التاريخ العربي الإسلامي كان يظهر فيها خمسة مؤرخين ونيف ، واثنا عشر كتاباً في التاريخ لا يقل واحدها عن عدة مجلدات ... علوم الدين وحدها وهي ما هي في التاريخ الإسلامي ، وعلماء الدين وهم ما هم فيه ، هم وحدهم الذين يبزون في التعداد على هذه الأرقام .

ولو نظرنا في حصاد الأمم الأخرى من التاريخ والمؤرخين لهالنا الفرق الواضح المتباين بينه وبين الحصاد العربي . نستثني بالطبع العصر الحديث ، عصر الطباعة والنشر والاتصال العالمي الوثيق وننظر في الأمم : في الصين ، على امتداد تاريخها خمسة آلاف سنة ، لم تنتج سوى عدة مئات . من السجلات الإمبراطورية كانت تحل محل التاريخ ... في الهند لا نكاد نجد سوى بضع عشرات من المهتمين بهذا العلم على إيغالها في الزمن عدة آلاف من السنين . اليونان ، ولو اختار التعصب الغربي منها هرودوت وجعله أبا التاريخ إلّا أنها لم تعرف من المؤرخين سوى عدد لا يجاوز العشرتين . والرومان على ما بنوا وفتحوا وقننوا ، ومثلهم الروم من بعدهم ، جميع مؤرخيهم لا يزيدون كثيراً على عدد أصابع الكفين ... وكذلك الكتب المؤلفة . وحدهم العرب في العهد الإسلامي يتدفقون بمثل ذلك العدد الهائل ... إنها ظاهرة غريبة . أهي ثرثرة

العجائز ؟ أهو الفراغ من العمل إلى تسجيل العمل ؟ أم هو الإحساس الكبير بالذات الزمنية وبعمق تلك الذات ؟

ولسنا هنا في معرض القطع بهذا الرأي أو ذاك . ولكن لا بد أن نسجل مع هذه الظاهرة أن الرسول العربي ، عليه سلام الله ، أعطى الإسلام بعده التاريخي الأعمق . ألح على أصالته في الزمان وعلى عمق جذوره . وفي القرآن الكريم قوله تعالى : ﴿ ملة أبيكم إبراهيم ﴾ وملة إبراهيم حنيفاً وأنه ﴿ جاء مصدقاً لما بين يديه من التوراة والإنجيل ﴾ وبين عهد إبراهيم وعهد الرسالة المحمدية ٢٥٠٠ سنة إلى ٣٠٠٠ على الأقل وبين موسى وابن عبد الله عشرون قرناً على الأقل ... وبين الإنجيل والقرآن في الزمان أكثر من ستة قرون .

نحن إذن أمة تاريخية حتى النخاع الشوكي ... ترى هل كان لذلك من أثر في اندفاعنا وراء التاريخ وحرصنا على تسجيل الدقائق والثواني فيه ... أم أنها ثرثرة العجائز ؟

« وتلك الأيام نداولها بين الناس »

بعد الحرب العالمية الثانية فوجئ العالم بأن النقد الدولي الذي يمسك بعنق الاقتصاد العالمي أضحى الدولار الأمريكي وأن اللغة العالمية للتجارة والسياسة والثقافة أضحت اللغة الإنكليزية . الذين عرفوا العهد السابق لتلك الحرب كانوا قد اعتادوا أن يكون الجنيه الاسترليني هو النقد الدولي للتعامل وأن تكن اللغة الفرنسية لغة العالم الأولى ...

لو عدنا بالزمن القهقري إلى ما قبل اكتشاف أمريكا منذ خمسة قرون . ثم ركبنا الأيام . رجوعاً إلى الوراء ثمانمائة سنة وتساءلنا عن نقد الدنيا ، وعن لغة الدنيا خلال هذه القرون الثمانية ، لفاجأنا الواقع التاريخي : نقد الدنيا هو النقد العربي الإسلامي ، ولغة الدنيا في السياسة والتجارة والثقافة هي لغة العرب ... قبل ذلك كانت لغة أخرى ، هي بدورها لغة قوم من العرب ، لغة العالم للتجارة والثقافة عدة قرون : تلك هي اللغة السريانية ...

وكما تستخدم المصارف اليوم الدولار الأمريكي في هونغ كونغ وفي مرسيليا أو لاباز عملة تحويل وتبادل كذلك كان الدينار والدرهم العربيان واسطة انتقال بين مختلف العملات بكل مكان . في سنة ٩٧٣ ، أي منذ ألف سنة ، مر وفد إسلامي أندلسي ببلاد ألمانية ، عائداً من سفارة لدى الإمبراطور أوتو الأول . تعجب رئيس الوفد إبراهيم بن أحمد الطرطوشي ، وهو ببلدة ماينز على نهر الرين حين دس أحد التجار في يده قطعاً من النقود العربية تحمل بالخط الكوفي اسم نصر بن أحمد الساماني ، أمير خراسان في المشرق قبل ذلك العهد بستين سنة... ماذا تراه يقول الطرطوشي إذا عرف أن أراضي روسيا

وأوكرانيا والبحر البلطي : الدانمرك ، السويد ، النروج ، فنلندا قد لفظت حتى الآن آلافاً بعد آلاف من العملة العربية التي تجمعها اليوم المتاحف ... ما كان العرب المسلمون وحدهم هم الذي أوصلوها إلى تلك الأصقاع : سكان الشمال من الفايكنغ والنورمند ومن يهود الخزر ، ومن الألمان والفرنجة وأهل البندقية ، هم الذين نثروها هناك ... كانت عملة التبادل بينهم . كانت دولار العصور الوسطى مدة ٧٠٠ إلى ٨٠٠ سنة !...

وكما اندست الدنانير والدراهم العربية في الأرض الغربية دليل انتشار وسلطان ، كذلك اندست الألفاظ العربية في أصلاب اللغات الأخرى . تركت فيها بصماتها الواضحة ... وكما يمر الربيع بالروابي والوديان فيترك هنا ينابيع من الزهر ، وهناك مزيداً من زهر التفاح والدراق ، كذلك تركت اللغة العربية حيث وصلت آثارها والبقايا : في اللغة الإسبانية مثلاً خمسة آلاف كلمة عربية . أقل من ذلك أخذت اللغة البرتغالية ، في الإيطالية ، في الفرنسية ، في الألمانية ، في اليونانية ، في التركية في لغات الهند عشرات ومئات من الكلام العربي .

في القرن الحادي عشر كتب أسقف قرطبة يقول : كثيرون من أبناء ديني يقرؤون أشعار العرب وأساطيرهم ... يتعلمون كيف يكتبون اللغة العربية . كل الشباب النابه منصرف إلى تعلم العربية . يا للهول لقد نسي المسيحيون حتى لغتهم ولن تجد بين الألف واحداً يتقن اللاتينية بينما تجد أعداداً كبيرة لا تحصى تتقن العربية بطلاقة وتقرض الشعر العربي أحسن من العرب ...

وحين يتحدث الألماني أو الفرنسي أو الإسباني عن الصوفا والبنان أي الموز والتاس أي الفنجان والكاراف أي الإبريق والشيفون القماش الشفاف وصندوق الدفع ، وقماش الموهير ... فإنما يستخدمون كلمات الصفة والبنان (الإصبع) والطاس ، والغرافة ، والشفاف والكيس وقماش المهير !...

من أشعة المغيب في هذا الانتشار الواسع خبر لا يكاد يعرفه الوطن

العربي كله ... الخبر من البرازيل هذه المرة. منذ أربعة قرون يوم كانت البرازيل فارغة الأرجاء تستقبل الأعداد بعد الأعداد من البرتغاليين سادة لها وإقطاعيين والمئات بعد المئات من الإفريقيين عبيداً يعملون في أرضها لأولئك السادة ... في تلك الأوقات: كان هؤلاء ــ العبيد يساقون على مراكب القرصنة المحرمة من إفريقية الإسلامية إلى تلك القارة الجديدة ... كان السادة البرتغاليون جهالاً أميين وأما العبيد العاملون في الأرض، وفي التعدين وفي تأهيل تلك الأراضي العذراء، فكانوا يجتمعون في أكواخهم كل ليلة يتعملون الكتابة والقرآن والدين الإسلامي على أيدي مشايخ منهم ... فإذا احتاج سيد من السادة أن يكتب إلى إقطاعي آخر ببعض الأمر كتب لهؤلاء المشايخ بالعربية. لأن الإقطاعي الآخر بدوره جاهل أمي ويستخدم بعض المشائح العارفين بالعربية لمراسلة الآخرين.

وقد تتساءلون: وكيف تغير هذا؟ تغير مائة وأربعين سنة فقط: فيما ظهرت أجيال من المتعلمين البرتغاليين كانت أعداد الإفريقيين المسلمين قد تكاثرت التكاثر الكبير. وكان كلمتهم قد اجتمعت وكانوا قد أجمعوا على الثورة ... وثاروا سنة ١٨٣٥ ثورة إسلامية واسعة لم تذكرها الكتب ولا الأخبار العربية بعد!... وذبح الثوار عن آخرهم ... وانتهت بذلك الكلمة العربية في البرازيل ...

وقبل ذلك بكثير كانت أضواؤها العالمية قد خفتت في معظم أنحاء الأرض ... وحلت الإسبانية ثم الفرنسية ... وأخيراً الإنكليزية محلها. «وتلك الأيام نداولها بين الناس» !!...

« لعبة الألقاب »

في طفولتي كان لا ينقضي عجبي من نص أثري يلقاني في طريقي كل يوم على الذهاب والإياب إلى المدرسة . وتحتل ألقاب السلطان منه أربعة أسطر من خمسة ومنها أنه السلطان الأعظم العادل المؤيد المظفر الشاهنشاه ، عماد الدنيا والدين ، سلطان الإسلام والمسلمين ، محيي العدل في العالمين ، ظل الله في أرضه ، القائم بسنته ، وفرضه اسكندر الزمان ، مملك أصحاب الملوك التيجان ، واهب الأقاليم والأمصار ، مبيد الطغاة والكفار ، سلطان البرية ، خاقان البحرين ، وخادم الحرمين الشريفين ، السلطان فلان خان بن السلطان فلان خان بن السلطان فلان خان . كنت أقرأ وأكرر القراءة وأدهش وأعجب وأضحك . لم أكن أعلم أن لعبة الألقاب قديمة وأن للألقاب ما لها من الجذور العتيقة في مختلف الأمم ومن الدور السياسي والاجتماعي في تاريخ الشرق القديم وفي التاريخ العربي الإسلامي .

كل الأمم استخدمت الألقاب لرجالها الكبار . في الصين أو في أوربا ، ولدى الهنود أو قبائل إفريقية الغابية كان اللقب تعبيراً عن الرهبة والاحترام ... المصريون القدماء عرفوه وعرفه العموريون والبابليون واستخدمه الرومان أحياناً للأباطرة كما استخدمه الفرس . غير أنه لم يبلغ ما بلغه من التطور المتمادي خلال العصور الإسلامية . بدأ كلمة أو اثنتين ثم انتهى عدة أسطر . كان كل عصر يزيده سطراً أو بعض السطر في الطول . ويزيده في التعقيد والمبالغة ومخالفة الواقع . حتى إذا كانت العصور الإسلامية الأخيرة احتاجت العيون إلى السفر على الأسطر لتصل ما بين مطلع الألقاب واسم صاحبها ... إن لم يعقب ذلك

عدة أسطر من الدعاء له أيضاً ...

أن يحمل محمد بن عبد الله لقب رسول الله فذلك إقرار لواقع، وواقعة إيمان جرت على ألسنة المؤمنين الأول. وأن يحمل أبو بكر لقب الصديق، أو عمر لقب الفاروق، فتلكم ألقاب احترام. وحين سمي أبو بكر بعد الرسول بالخليفة أو خليفة رسول الله كان في ذهن الناس البحث عن لقب لرئيس الجماعة الإسلامية وقد وجده عمر بن الخطاب في لقب أمير المؤمنين ... ومع أن الخلفاء الأمويين كانوا ينادون بأسمائهم إلَّا أنهم كانوا في الغالب يلقبون عند النصوص الرسمية بعبد الله فلان أمير المؤمنين وقد دعوا أنفسهم في أواخر العهد الأموي بخليفة اللهأو الخليفة فقط أو خليفة رسول الله ...

ثم كان أول من لقب نفسه من الخلفاء: المنصور العباسي الذي أعطى ابنه أيضاً لقب المهدي أراد أن يختطف من الشيعة العلوية أن الله ناصرها وأن المهدي سيكون منها ... وهذا الظل الديني الخفيف الناعم الذي نجده في اللقبين استمر بعد ذلك في ألقاب الرشيد والأمين والمأمون ثم ... فجأة جاء المعتصم فأضاف إلى لقبه لفظ الجلالة: صار المعتصم بالله. ولحقه الخلفاء الآخرون ... لحقوه وكانوا كلما انهارت سلطاتهم الدنيوية أكثر فأكثر ازدادوا تمسكاً بالطابع الديني أكثر فأكثر. اللقب الذي كانوا يتخذونه كان تعبيراً عن ضياع قوى الحكم منهم. ألسنا نراهم يتخذون لقب المتوكل على الله، والمعتمد على اللهوالمستنجد بالله ... والقائم بأمر اللهفكأنه لو لا أمر اللهما قام؟

على أن لعبة الألقاب بدأت رقصها الأوسع في التاريخ الإسلامي بعد ذلك أي منذ القرن الرابع الهجري في ذلك العصر قال الشاعر:

قل الدراهم في كفي خليفتنا   هذا فوزع بين الناس ألقابا

والواقع أنه ليست الدراهم وحدها هي التي قلت في يد الخليفة ولكن السلطة الفعلية ... لم يعد يحكم حتى خدم قصره. وانتقلت السلطة إلى حكام من المغامرين: أخذوا لأنفسهم ألقاباً جديدة ألصقوها بكلمة الدولة. دلالة

على الحكم الفعلي : فهناك عميد الدولة ونظام الدولة وسيف الدولة وناصر الدولة . أو مضافة إلى كلمة الملك : عماد الملك ونظام الملك . ووجد العلماء وبعض الأمراء أنهم ليسوا أقل شأناً من الحكام الكبار . فاتخذوا ألقاباً متصلة بكلمة الدين : ظهير الدين ، نجم الدين ، عماد الدين ، شمس الدين ، أو وصلوها بكلمة الملة أو الإسلام سيف الملة ، ناصر الإسلام ، ظهير الإسلام .

وتزايد الركض إلى الألقاب ما دامت لا تكلف سوى الكلام ، ومرسوم خليفي أو سلطاني .وأضيف بعضها إلى بعض زيادة في المنافسة والمبالغة حتى بلغت سطرين في العصر السلجوقي والأيوبي وبلغت ثلاثة في العصر المملوكي أو تزيد ووصلت عدة أسطر في العهد العثماني الأخير ، التأثير الفارسي أولاً ثم التركي لعب دوره في تطويرها .

بلى ! كان بعض الألقاب يعبر عن وظائف محددة في الدولة وبعضها تكريمي فخري ، وبعضها ضرب من التملق والرياء الرخيص للحاكمين ... ولكنها في كل الأحوال كانت : تعبيراً عن استقرار الطبقية الاجتماعية السياسية في المجتمع الإسلامي المتأخر من جهة . كما كانت من جهة أخرى محاولة لتجذير من لا جذور له في ذلك المجتمع ... ألم يكن الحكام المتأخرون : من الجند والمماليك والمغامرين الطارئين على هذا المجتمع ؟ لقد كانت الألقاب بطولها الممل وتكرار النعوت والأوصاف الكبرى فيها كشفاً عن عقدة النقص التي يشعر بها هؤلاء الغرباء .

بقي أن نضيف على ألسنتنا من تلك الألقاب إلى اليوم بقية ... نقول الأستاذ ولعل أصلها الأسطى ، وكانت تستعمل للخصيان من العلماء المربين ، ونقول البيك وهي مختصر بيوك التركية وتعني الكبير أو الأمير ونقول الأفندي وهي المولى والسيد عند الترك وهي أعلى من الباشا المأخوذة من باش أي راس ولم تكن تعني أكثر من رئيس الجند ...

أما تزال تزدهينا هذه الألقاب ؟ ...

« طب الموت »

هل أتلو عليكم قصة من كتاب ؟

صاحب الكتاب فارس عربي من أفذاذ العرب المغمورين. أما اسمه فأسامة بن منقذ من أمراء قلعة شيزر في وسط سورية . وأما عهده فالقرن الثاني عشر أي القرن الأول للحرب ضد الفرنجة الصليبيين . وقد عاش هذا القرن كله تقريباً محارباً أميراً ، شاعراً ، سفيراً ، صياداً للأسود والظباء متآمراً في الشام أو في مصر ضد هذا وذاك من رجال الحكم ... والرجل إلى هذا كله كان مؤلفاً : كتب أربعاً وعشرين كتاباً ... أطرف هذه الكتب دون شك كتابه الاعتبار ... يروي فيه بعضاً من طريف الذكريات ، وقد أتيح له منها الكثير لا سيما مع الفرنجة الصليبيين . وقد كان يزورهم ويعرفهم المعرفة القريبة .

في كتابه هذا نقرأ : « ... ومن عجيب طبهم أن صاحب المنيطرة (وهو حصن في بعض جبال لبنان) كتب إلى عمي ، أمير شيزر يطلب إنفاذ طبيب يداوي مرضى من أصحابه فأرسل إليه طبيباً نصرانياً يقال له ثابت فما غاب عشرة أيام حتى عاد فقلنا له : ما أسرع ما دوايت المرضى ورجعت قال : أحضروا عندي فارساً قد طلعت في رجله دملة . وامرأة قد لحقها نشاف فعملت للفارس لبيخة . ففتحت الدملة وصلحت . وحميت المرأة ورطبت مزاجها ... فجاءهم طبيب افرنجي فقال لهم : هذا ما يعرف شيئاً يداويهم وقال للفارس : أيما أحب إليك تعيش برجل واحدة أو تموت برجلين . قال أعيش برجل واحدة . قال أحضروا لي فارساً قوياً وفأساً قاطعة . فحضر الفارس والفأس . وأنا حاضر . فحط ساقه على قرمة خشب . وقال للفارس اضرب

رجله بالفأس ضربة واحدة، اقطعها. ضربه وأنا أراه ضربة واحدة ما انقطعت. ضربه ثانية فسال مخ الساق. ومات الرجل من ساعته. وأبصر المرأة فقال: هذه امرأة في رأسها شيطان قد عشقها. احلقوا شعرها فحلقوه. وعادت تأكل من مآكلهم الثوم والخردل فزاد بها النشاف فقال: الشيطان قد دخل في رأسها فأخذ الموس وشق رأسها صليباً وسلخ وسطه حتى ظهر عظم الرأس وحكه بالملح فماتت من وقتها. فقلت لهم: بقي لكم إلى حاجة قالوا: لا. فجئت وقد تعلمت من طبهم ما لم أكن أعرفه ...».

هذه القصة يرويها أسامة بن منقذ عن الطب عند الفرنج في العصر العربي الإسلامي. ويضيف إليها قصة أخرى أكثر غرابة رواها له فارس فرنجي وهو يسامره قال: كان عندنا في بلادنا بألمانيا فارس كبير القدر فمرض وأشرف على الموت فجئنا إليه بقس من قسوسنا وقلنا: تجيء معنا حتى تبصر الفارس فلاناً قال: نعم. ومشي معنا ونحن نتحقق أنه إذا حط يده عليه عوفي. فلما رآه قال: أعطوني شمعاً فأحضرنا له قليل شمع فلينه وعمله مثل عقد الإصبع وعمل كل واحدة في جانب أنفه، فمات الفارس. فقلنا له: قد مات قال: نعم كان يتعذب. سددت أنفه حتى يموت ويستريح! ...».

عمر هذه القصة ٨٠٠ سنة فقط. إنها صورة الطب في أوربا في تلك الأوقات وقد أثارت دهشة وسخر: راويتها الأمير أسامة، الذي كان يعرف أطباء قومه والطب عند قومه: يعرف أنه يقوم على جس النبض وتحليل البول وعلى التخدير في عمليات الجراحة وعلى علم واسع بالعقاقير وعلم أوسع بأسباب الأدواء وأنواع الحميات وبالعدوى في الأمراض... وتراث يبلغ المئات من المؤلفات الطبية... وإذا كانت صورة الطب الأوربي معروفة لنا اليوم فقد يرد السؤال كيف جرى هذا التحول العظيم؟. الجواب نجده في قاعة كلية الطب في باريس: هناك تطل صور أعداد الأطباء الذين كانوا ثورة في الطب... وبين هذه الصور تطل صورتان غريبتان هناك هما للعربيين اللذين

قادا بمؤلفاتهما خطوات أوربا نحو العلم الصحيح والطب الصحيح واللذين كانا بعلمهما ووحدهما طبيبي أوربا أكثر من قرون : ابن سينا والرازي .

كتاب القانون لابن سينا ترجم في ميلانو سنة ١٤٧٣ ثم بعد سنتين طبع للمرة الثانية . فما جاءت سنة ١٥٠٠ حتى كان قد طبع ١٦ طبعة .

وفي القرن التالي زادت طبعاته على العشرين ... أما كتاب الحاوي للرازي فإنه رغم ضخامته نشر خمس مرات ما بين سنتي ١٤٨٦ و ١٥٤٢ . أما القسم المتعلق منه بالجدري فقد طبع ما بين أواخر القرن الخامس عشر وسنة ١٨٦٦ ما ينيف على الأربعين مرة ... على أكتاف الطب العربي ، قفز الطب الأوربي قفزته الأولى الأساسية ليكون علم طب الإنسان ... دون أوهام ولا تعاويذ ولا شيطان ... ترى لو عاد أسامة بن منقذ اليوم ليكتب كتاب الاعتبار فماذا كان يورد من القصص ؟...

« العين العوراء »

هل سمعتم قصة تقول أن ملكاً من الملوك ، بعد أن انتهت أعراس التتويج جاءه وزراؤه والأعوان يلتمسون تعليماته قال : أيكم عين الدولة ؟ فبادر كبير الجواسيس قال : أنا يا سيدي ! قال الملك : قم بواجبك كاملاً كاملاً ... وازدهى الغرور الرجل ورقصت على صدره الأوسمة وهو خارج من القصر ... وتهامس الناس إنها الدولة البوليسية دولة هذا الملك !!

وفي اليوم الثاني جاء كبير الجواسيس بملفاته : فلان يا صاحب الجلالة خطر . إنه من رجال الثورة الماضية . وفلان ناقم يشتم . وأما فلان فيجمع ويدبر ما لسنا نعلم بعد من المؤامرة . وفلان اجتمع بفلان ... وزفر الملك بعد الاستماع الطويل : هذا كل شيء ؟ نعم يا صاحب الجلالة .

قال الملك : يا صاحبي ما أنت إلّا العين العوراء ... أهذه صورة الدولة ؟ إذن فذلك الذي زين المدينة ببناء جديد جميل أين مكانه من عيونك ؟ وذاك الذي أضاف مصنعاً أو أطرب الناس بلحن مبتكر أو خلق قصيدة مدهشة ، أو أقام مؤسسة للأيتام ... أين هم ؟ هؤلاء بناة الأمة الحقيقيون فأين أخبارهم ؟ وما أنجزوا من المنجزات ؟ ألم أقل : قم بواجبك كاملاً كاملاً ...؟

أنا ما قرأت هذه القصة في مكان . ولكني تمنيت لو قرأتها . لو كان لملك في الغابرين أو الحاضرين مثل هذا الأفق المبدع الرحب الذي يفتش عن الإنجاز . عن الإيجاب الإنشائي عن العمل الطيب بدل إقامة الأرصاد فقط على أعداء الحكم ... وعلى عورات الناس !

ويخيل إلي أن العين العوراء نوع من الداء لا يصاب به الملوك فقط

ولا الأفراد الذين لا يبحثون إلّا عن سوءات الآخرين ولكن أيضاً رجال العلم ... الذين كتبوا والذين صنعوا تاريخنا مثلاً كانوا بدورهم مصابين به على نحو من الأنحاء: ربطوا عيونهم بالملوك والحكام وتركوا جماهير الناس. سجلوا الشاذ والغريب من الأحداث. ولم يأبهوا لبناء الحياة اليومي. رصدوا أعداد القتلى في الحروب والمعارك، لا مواليد الحياة وأفراحها. وحركات الثائرين لا النشاط الدؤوب للمبدعين والعاملين. كتبوا ما وهب السلطان لبيت من الشعر لا ما أعطت الأرض من العطاء... لحقوا كل شاذ حتى لهو الأمراء وحكاياهم مع الجواري، حتى ولادة مولود برأسين أو حريق بيت لأحد الكبراء... جمعوا القشور الطافية على السطح، في النهر، ونسوا مجرى التيار العميق...

في غمرة النقاش، قال صاحبي بين ما قال: لقد جاءت على سنوات أولعت فيها أقوى الولع بالتاريخ العربي الإسلامي... قرأت من الكتب الكثير حفظت من أمور الأحداث أكثر. عرفت الخلفاء والسلاطين وتواريخ السنين. ثم مللت هذا كله... مللت!

لم أجد إلّا حكايات الذبح والقتل والثورات والفتن والانتفاض. تاريخنا مطعم حتى الاختناق بهذه الحكايا... وقال صاحبي ثم قال الكثير. وأنهى كلامه بقرار. قال أنا الآن لا أوافق أن يكون التاريخ بين مواد التدريس لأولادي... إنه ليس مادة تربوية...

وقلت: دعني قبل الجواب أردد لك قصة الملك الصيني سيننغ... الذي عاش قبل خمسة وعشرين قرناً... فقد جنح هذا الملك لما كان يسمع عن الفساد والاضطراب والفوضى في مملكته... كان يبذل المستحيل ليكون الملك العادل، العمراني، الساهر على الرعية، المبدع في كل ميدان. ولكنه كان لا يسمع إلّا السيئ عن رعيته والمملكة وذهب إلى كبير الكهان في المعبد يستشيره. فقال الكاهن العجوز: الدنيا مملوءة خيراً كما أنها مملوءة بالشر ولكن

حذار من الفيلة ! وأمر الملك فجمع ما في المملكة من الفيلة جميعاً وقتلها . وعبثاً فعل . إن شيئاً لم يتغير في دنيا الناس ... وعرض الشكوى مرة أخرى على كبير الكهان فقال الكاهن : الفيل ينظر من جانب واحد يا صاحب الجلالة . فتش عن أشباه الفيلة حولك ! الذي يرون السوءات والفتن ولا يرون محاسن الناس ، يلاحظون الخراب ولا يعنيهم قيام العمائر وما خلق الفنان من الشعر والألحان ولا صنعة الصانع المبتكر . ويخيل إلي أنك يا صاحبي وقعت من المؤرخين على هؤلاء أو أشباه هؤلاء. إن العيب ليس في التاريخ ولكن في المؤرخين . الذي كتبوا تاريخنا منذ الدهر الأطول كانوا في معظمهم من أصحاب النظرة الأحادية الجانب . تسع وتسعون بالمائة منهم ربطوا عيونهم بالملوك والحكام وتركوا جماهير الناس . سجلوا الشاذ وتركوا مجرى الحياة الأوسع .

هكذا كتب المؤرخون حتى الأقطاب منهم وقائع التاريخ العربي الإسلامي خلال عشرة قرون . الطبري ، اليعقوبي ، ابن الجوزي ، ابن الأثير ، الذهبي ، ابن تغرى بردى إلى ابن خلدون كلهم أصابتهم مصيبة الجانب الواحد . ونأخذ نحن ما نأخذ فلا نكاد نرى في سيل السنين الدافق ، سوى النكبة تتلو النكبة . فإن لم تكن ثورة كانت مذبحة . وإن لم يكن هذا ولا ذاك فقصة وباء مكتسح أو غزوة تحرق الأخضر حيث حط الحافر المهر . وإلَّا فظلم يسحق الجماجم بالضرائب الذابحة ، أو مجاعة تعرق العظم وتدمر إنسانية الإنسان : فالناس يتصيد بعضهم بعضاً . وينتهي الصيد إلى القدور ...

هل هذا هو حقيقة هذا التاريخ ؟ الواقع إنه الصورة السلبية له . تماماً كما أن ثمة في فن التصوير صورة سلبية تستخرج عنها الصورة الإيجابية الصحيحة ، كذلك الأمر في هذا التاريخ . المؤرخون اهتموا بتصوير الشاذ والغريب والناشز والخارق للعادة . ما هو من صميم الحياة وتكوينها المعتاد الدائم لم يجدوا فيه ما يثير أو يستحق التسجيل . الغريب هو الذي أثار اهتمامهم وحرك الأقلام ... أرأيتم إلى الصحف والصحافة اليوم ماذا تفعل ؟ تسجل الجريمة الغريبة . والسرقة

الشاذة وانهيار البناء الفلاني ومحاكمة بعض المحتالين ... فلو شاءمؤرخ أن يؤرخ لمجتمع من المجتمعات من خلال مجموعة الصحف لعشر سنوات فماذا تراه يجد؟ ٥٠٠ سارق مثلاً، ٣٠٠ مجرم، ١٠٠٠ محتال ... أما الملايين الذين يمشون على دروب الحياة. على الطريق السوي يبنون بما ينتجون فلا خبر عنهم ولا ذكر ... أرأيتم الصورة السلبية؟

هكذا كتب التاريخ العربي الإسلامي ...

ألم يصب يا ترى بداء النظرة الأحادية الجانب؟

أليس يحتاج إلى المؤرخ الملك الذي ينظر إليه بعينين صحيحتين ومن كل الجوانب؟.

«في سنة ألف ... عالمان متناقصان»

نحن الآن في سنة ٩٩٥ أي قبل ألف سنة ...

الشائعات تعيش بين الناس في أوربا أن يوم القيامة اقترب ، وأن نهاية العالم ستكون سنة ألف ... ومهما كان الأمر هزلاً فإن انتشاره يجعله أشبه بالصدق . وبدأ الرعب يدق الأبواب ويسيل في الدروب . وكلما دنا الموعد ، ازدادت الشائعة رسوخاً وتشبث الهول بالصدور ... رجال الدين في الكنائس ـــ وهم أهل الله وأهل العلم في المجتمع الأوربي يومذاك أيدوا الخبر وأطلقوا كل الأخيلة من الأهوال ... وحتى إمبراطور ألمانيا الشاب أوتو الثالث وقف يعظ شعبه قائلاً : « ... والآن سيأتي المسيح ويحضر الناس ليقبض من هذا العالم ... » .

أأحدثكم عن تراكض الناس إلى الكنائس يوم حلت سنة ألف ؟ عن الدموع التي سفحت ؟ عن طلبات الغفران والمسامحة بين الجار والجار ؟ عن سداد الديون الميتة ؟ عن الصلوات التي لا تنقطع ؟ عن موجة الطهر التي غسلت الجدران وما وراء الجدران ...

أوربا كلها أضحت كنيسة راكعة ... وكان الجهل هو السيد الأعظم فيها ...

مقابل هذا العالَم في سنة ألف كان ثمة عالَم آخر يعيش عصره الذهبي الأكبر : عالم الشرق الإسلامي . أربع شموس كبرى من المدن كانت تضج بالنور فيه قرطبة ، القاهرة ، بغداد ، نيسابور ... وكان العالمان متناقضين كل التناقض في تلك السنوات .

في الشرق الإسلامي كان القراء يقرؤون كل صباح قوله تعالى : ﴿ وقل رب زدني علماً ﴾ . والمأثور عن رسول الله : « اطلبوا العلم ولو في الصين » ، « اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد » ، « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » . وفي الغرب يقرأ من يعرف القراءة من الرهبان والقسس قول بولس الرسول : دعوا المعرفة الدنيوية . ألم يصف الرب المعرفة الدنيوية بترك العبادة ؟

وفيما كان وراء الحكم الثاني المستنصر في الأندلس مكتبة من نصف مليون مجلد ، والوزير الصاحب ابن عباد يسير ووراءه ثلاثون جملاً محملة بالكتب . كان شارلمان ، أكبر ملوك أوربا في مطلع القرن التاسع لا يعرف كيف يكتب اسمه ...

وفيما كان ابن سينا في أقصى المشرق يكتب كتاب الشفاء ، وكتاب القانون ، ومائة كتاب آخر واضعاً بذلك أساس الفلسفة والطب لعالم العصور الوسطى كله ، وعلى مدى ستة قرون ، وكانت بغداد تضم ٨٠٠ طبيب عقدت لهم قبل مزاولة الطب الامتحانات العلمية ، وكانت المستشفيات تبنى بكل مدينة إسلامية للمداواة المجانية ، كانت القاعدة في أوربا ما قاله يعقوب الحواري . وأوصى : إن كان بينكم مريض فأقيموا الصلاة عليه امسحوا جسده بالزيت الطاهر فصلاة المؤمن منقذة من مخالب الداء .

وقول الواعظ الصليبي برنار كلانوو : « حرام تناول العقاقير أو الاتصال بالأطباء . إن خلاص الروح يجب أن لا تعبث به عقاقير أرضية » . وقول الأب تاسيان : « علم العقاقير فن باطل خادع فإذا كانت المادة تشفي فأحرى بقدرة اللهأن تكون أكثر قدرة على الشفاء » !.

وفيما كان الحسن بن الهيثم قد وضع قوانين الضوء والانكسار والمرايا ، وكان الخوارزمي قد أقام علم الجبر ، ونظم اللوغاريتمات وعلم المثلثات ، وجابر بن حيان أبو الكيمياء قد وضع علم الكيمياء وابتكر أنواع المركبات ... كان المجتمع المقدس في روما يصدر ، في مطلع القرن الثالث عشر ، قراراً بتحريم

قراءة كتب الفيزياء، لأن قراءتها خطيئة كبرى !.

وفيما كان الجغرافيون يطوفون فوق الأرض، والفلكيون يذرعون السماوات بالمراصد، وكان هؤلاء وهؤلاء يسجلون كروية الأرض وأبعاد الكواكب ويقيسون قطر الأرض. كان معلم الكنيسة الغربية لاكتناسيوس يتساءل مستنكراً: «هل هذا من المعقول؟ أيعقل أن يجن الناس إلى هذا الحد فيدخل في عقولهم أن البلدان والأشجار تتدلى من الجانب الآخر من الأرض وأن أقدام الناس تعلو رؤوسهم؟...».

كانا عالمين منفصلين مختلفين، ويخيل للإنسان اليوم أن هذين العالمين، وبعد ألف سنة وفي كثير من النواحي قد تبادلا المواقف والرأي والمواقع...

الرعب الكبير هو أن تكون المسافة بينهما قد أضحت أكبر من أن تجتاز...

« الطريق إلى الصين »

في المأثور من الحديث النبوي الذي يرويه الكثيرون : اطلبوا العلم ولو في الصين ... وإذا قيل : الصين في عصر الرسالة ، وحتى بعد ذلك العصر بقرون طويلة ، فكأنما نقول اليوم : المريخ ... كانت الصين في تلك العصور العالم البعيد الغامض الغامض ... لا يسلك الطريق إليها ـــ كما قال أحد الرحالة القدماء ـــ إلَّا من غرر ولم يسمع ـــ على حد قوله أيضاً ـــ أن أحداً سلكه وسلم وعاد قط . فإن سلم في المضي وهو عجب فلا يكاد يسلم من العودة . وما سمعت أن أحداً سلم في الذهاب والمجيء سوى عجرة البحار العربي الذي سافر إلى الصين سبع مرات ... ذلك قول الرحالة القديم ...

والواقع أن العرب المسلمين كانوا أول من ربط ما بين حضارات البحر الأبيض المتوسط ، العريقة المتعددة الثقافات وبين حضارة الصين في أقصى الأرض المعروفة . وربطوا الطرفين برباط التجارة والتبادل الحضاري في وقت مبكر جداً ... وإذا كان نشر الحكم الإسلامي والدين قد قاد سنابكهم من مكة شرقاً إلى نهر السند وإلى ما وراء النهر في تركستان ، فإن المغامرة التجارية قد قادتهم أضعاف تلك المسافات إلى جزيرة سرنديب ، وإلى مضيق مالقه ، أو سالاهت أي المضيق بلغة الملايو ، ثم إلى الجزر الجبلية المعترضة في البحر والتي سموها أبواب الصين ... حتى وصلوا وراءها مدينة خانفو (كانتون اليوم) ثم تجاوزوها إلى أرض كوريا ... وإذا كانت هذه المسافات هي اليوم على الطائرة مرعبة ، طويلة مرهقة فما بالك وهم يقطعونها على ظهر الموج ويقضون في عبورها سنتين على الأقل من السنين !.

والتجارة بالإضافة إلى جانب المادة فيها والربح، عملية حضارية لا أخصب ولا أقوى. البضاعة لا تنتقل وحدها على السفن ولكن تنتقل معها دوماً الأفكار. وتنتقل الأذواق والمبتكرات الإنسانية والأنماط الحضارية. وهي إحدى أعمق الوسائل وأنجعها في تعارف الشعوب وتلاقيها...

ولم يكن قد مضى على الفتح الإسلامي قرن واحد حين كان قد اجتمع في ميناء كانتون في الصين، وفي جزيرة هاي تان المجاورة لها ألوف من العرب المسلمين... المؤرخون المسلمون لم يذكروا شيئاً عن هذا الفتح الخفي. مؤرخ صيني من ذلك العصر هو الذي يقول: «إن برابرة الغرب (أي القادمين من غرب الصين) دخلوا المملكة الوسطى جماعات كالطوفان. جاءت من مسافة تبعد (عشرة) آلاف فرسخ على الأقل وأتت من أكثر من مائة بلد تحمل كتبها المقدسة كأنها فريضة. فأخذت هذه الكتب ووضعت في بهو القصر الإمبراطوري المخصص لترجمات الكتب المقدسة...».

فنحن إذن بالإضافة إلى معنى هذا التوسع التجاري وأهمية الاتصال بدنيا الصين أمام أول وأقدم ترجمة للقرآن الكريم نعرف خبرها ومن الغريب أنها كانت إلى اللغة الصينية، وكانت فيما بين أواخر العهد الأموي ومطلع العصر العباسي... وما من شك في أن تألق العالم العربي الإسلامي قد فرض نفسه على الصين حتى بادرت إلى معرفة ما اعتبرته سر هذه الحركة التاريخية الكبرى... ومن الغريب أن الصين قد عرفت عن هؤلاء المسلمين في ذلك الوقت ما لم تستطيع أوربا الغربية معرفته خلال قرون بعد ذلك. مؤرخ صيني آخر من العصر نفسه يذكر أنه «في عهد أسرة تانغ، وفد على كانتون عدد كبير من الغرباء من مملكة أيام وكمبوديا ومدينة (ويعني يثرب المدينة المنورة)، وكان هؤلاء الغرباء يعبدون الله وليس لهم في معابدهم تمثال أو صنم ولا صورة ومملكة المدينة (أي الدولة الإسلامية) قريبة من مملكة الهند وفيها نشأت ديانة هؤلاء الغرباء التي تختلف عن ديانة بوذا. وكانوا لا يأكلون لحم الخنزير ولا يشربون

الخمر ويعتبرون الذبائح التي لا يذبحونها بأيديهم طعاماً نجساً ... ولما استأذنوا الإمبراطور وحصلوا منه على إذن بالإقامة في كانتون بنوا دوراً جميلة من طراز يختلف عن ذلك الذي في بلادنا . وكانت لهم ثروة عظيمة ويدينون بالطاعة لرئيس ينتخبونه بأنفسهم ... » .

هؤلاء الرواد العرب الأوائل هم الذين نصبوا الجسور ما بين البحر الأبيض المتوسط وبين الصين . وهم الذين رعوا هذه الجسور عدة قرون بعد ذلك ، وعلى ظهور مئات الآلاف من المراكب . وأقاموا الصلات بعد ان قربوا المسافة مع حضارة الصين عبر المحيط الهندي والصين من جهة ، وعبر التركستان وممر زنجاريا والصحارى المغولية من جهة أخرى .

وعبر هذه الجسور في البر والبحر ، أدخل العرب إلى الحضارة العالمية ثلاثة على الأقل من مبتكرات الصين كانت ثورة في حضارة الدنيا : الورق الذي سهل نقل الفكر ، والبوصلة التي هدت الناس في البحار والبارود الذي ما يزال يطور القوة العسكرية في العالم ...

أكان قليلاً ما فعل العرب لفتح الطريق إلى الصين ؟.

« كولومبوس العربي »

منذ خمس وعشرين سنة ، وكنت في أمريكا اللاتينية هزني خبر عابر قرأته في عدة أسطر ثم أعياني تتبعه أشهراً قبل أن يغيب عني في ... ما لست أدري من عالم الغيب ... قرأت : أن هندياً من بعض الهنود الأمريكيين عثر في جوف شجرة معمرة من البلوط العتيق على كتاب مخطوط تبين بعد الفحص أنه مكتوب بالعربية وأن كاتبه هو أحد البحارة الكبار على سفن كريستوف كولومب ، مكتشف أمريكا ... وأن هذا البحار كان يروي قصة الرحلة كلها ...

وكتبت في كل الاتجاهات أسأل عن هذا المخطوط ، في أي الأيدي وقع ؟ وأيان مصيره؟ وما الذي فيه؟.. كتبت إلى وكالة الأنباء وإلى الجامعة العربية وإلى بعض الأصدقاء في المدينة التي صدر عنها الخبر وإلى بعض أساتذة الجامعات الأمريكية . وفوجئت أن لا أتلقى سوى جوابين فقط من أستاذين وأن الجوابين عبرا عن الجهل الكامل بالخبر ...

...وغاص الخبر في يم النسيان اللا نهائي من جديد ...

وأقبلت وحدي ألهث وراء حقيقته . أهو ممكن ؟ وكانت النتائج التي اجتمعت لدي بدورها مثيرة مثيرة . كان أول ما اجتمع لدي هو أن كولومبوس لم يأخذ معلوماته الجغرافية فقط عن العرب ولا أفكارهم عن تكور الأرض فحسب ولا الخرائط التي رسموها فكانت أساس خرائطه مع الاسطرلاب والبوصلة ، ولكنه أخذ أيضاً على سفنه البحارة العرب وقد كان بعضهم في سجون ملك إسبانيا وبعضهم على السفن العربية في لشبونه ومرافئها ... وقد

كانوا هناك معه في ساعات اليأس الأسود في أقصى محيط الظلمات ، كما كانوا ساعة انفجر الفرح بظهور بعض الطيور في السماء وبعض بقايا النبات على الجلد الأزرق الرهيب ...

ثم كانت القصة المثيرة الأخرى ... قصة كولومبوس العربي ... بلى ! كولومبوس العربي . لا ! ما قصدت أن كولومبوس عربي الأصل . ماجلان هو الذي تحوم الظنون حول عروبته . أما كولومبوس العربي فشخص آخر وحكاية أخرى تستحق الرواية ...

الذين كانوا يروون من العرب ، اسهام العرب في كشف أمريكا كانوا يحكون قصة الأخوة المغربين الأربعة . وهم الذي لقبهم الكتاب بالمغررين .. الذين وصلوا جزيرة ملأى بالغنم فأعادهم أهلها معصوبي الأعين إلى البر القديم في إفريقية ... أما حكايتنا فحكاية أخرى ... وإذا كنا نعلم أولادنا الصغار في المدارس اسم كولومبوس على أنه مكتشف أمريكا فلعله من العدل ، بعد هذه الحكاية أن نعلمه الاسم الجديد : ميشا !

فقبل أن يولد كولومبوس بنصف قرن توفي في مصر مؤلف مشهور هو القلقشندي صاحب كتاب (صبح الأعشى في صناعة الإنشا) والكتاب في أربعة عشر مجلداً مطبوع موجود . كتبه صاحبه قبل كشف أمريكا سنة ١٤٩٢ بأكثر من قرن من الزمان . وفي الكتاب يروي الرجل أنه شهد في القاهرة ملكاً من ملوك غربي إفريقية ، كان قادماً مع حاشيته إلى الحج ، وتمتد مملكته العربية الإسلامية على ما نسميه اليوم بموريتانيا والصحراء حتى أرض السنغال .

يقول القلقشندي : سألته وأنا أحاوره . هل وصلك الملك بالقوة أم بالإرث ؟ قال لا بهذا ولا بذاك . ولكن ابن عمي الملك ميشا ، عهد إلي بالحكم في غيابه . وقد كان مولعاً بركوب البحار ، والمغامرة وكشف ما وراء بحر الظلمات . وقد بنى مجموعة كبيرة من السفن وأرسلها في المحيط فلم يعد منها

إلَّا سفينة واحدة قال صاحبها أنهم وجدوا في عبورهم المائي نهراً عظيماً يجري وسط المحيط (ونحن نعرف اليوم أن هذا النهر العظيم ما هو إلَّا (تيار الخليج) فابتلع السفن ولم تنج إلَّا هذه السفينة العائدة ... واستثير الملك فأمر ببناء ألفي سفينة. ألف للرجال وألف للأزواد وسافر على رأسها ... ثم لم يرجع !...

هذا الذي رواه القلقشندي ليس سوى نصف الخبر أما نصفه الآخر الذي لم يعرفه، فترويه أخبار رجال كولومبوس وبحارته الذي ذكروا بعد كشف أمريكا أنهم وجدوا على البر الجديد جماعات من الناس سمر البشرة جداً، يلبسون البرانس والعمائم !... إذن فهذه هي تتمة القصة المجهولة ... والخبران هما خبر وبقيته ... إنهما أشبه بصورة قسمت نصفين. سجل القلشندي نصفها الأول. وسجل أصحاب كولومبوس بعد قرن منه النصف الثاني ...

وكولومبوس إذن ليس المكتشف للبر الجديد ...

بلى ! أعرف أن أمماً كثيرة منها النرويج والهولانديون والدنمارك وإنكلترا وفرنسا تدعى كل منها فخر السبق في اكتشاف أمريكا ... ولست في صدد إدخال اسم العرب في هذا الزحام. ولكن ميشا كشف أرض أمريكا قبل كولومبوس بقرن من الزمان.

الفرق بين الاثنين أن ميشا لم يعد وأن كولومبوس عاد ...

وكولومبوس ليس أول من وصل أمريكا، ولكنه أول من عاد منها ! أليس كذلك ؟

« الملحمة السوداء »

انهيار الأندلس، على بعده الزمني الذي انقضى عليه خمسة قرون، ما يزال في النفوس جرحاً، على النجوم، كانهيار الأعراس. غرناطة، وقصر الحمراء، وجنان العريف ما تزال من ذكريات الكوارث الممزقة. أبو عبد اللّه الصغير والوداع الباكي على عطفة الجبل مشهد من الأسى لا ينسى في التاريخ العربي...

ونحن نلوم أبا عبد اللّه الصغير ولا نذكر أن ضياع الأندلس بدأ في الواقع قبله بخمس مائة سنة، ونبكي انهيار الملحمة الأندلسية تحت ضغط القوى الفرنجية والأوربية التي تكالبت عليها عدة قرون وننسى أن هذا الضغط نفسه كان له جانبه الإيجابي المنتصر... بلى! إن ذلك الصراع العنيف الطويل عبر جبل طارق إلى الشمال دفع العرب المسلمين في المغرب إلى أن يتجهوا بالمقابل وفي نوع من التعويض نحو الجنوب. وإلى أن يدخلوا العالم الزنجي، وإلى أن يبدأوا ملحمة الإسلام في القارة السوداء...

كانت أرض الزنج، صوراً من الوهم البعيد لدى العرب المسلمين. قوافل التجارة التي كانت تتجه إليها تقضي تسعة أشهر بين المفاوز والمهالك والرمال. لتصل. وتسعة أشهر مثلها كي تعود. إنها الصحراء الكبرى تضرب بين أرض الحضارة العربية الإسلامية، وبين ذلك العالم الآخر المديد ذي الغابات المدارية من الأجساد الملونة، والقلوب البريئة، والعيون تلمع كالكرز الأحمر بين الشجر...

وقصة خروج الحضارة العربية والإسلام من الإطار العربي ودخولها البحر

الزنجي الأوسع طويلة طويلة، مملوءة بالبطولة وبالإيمان وبالحب الإنساني، في وقت معاً. وهل من أحد اليوم سمع بعبد الله بن ياسين ومسلم دام وابن عبد الكريم المجيلي وعثمان دنفديو وعمرو كبا وأحمدو التنجوري؟... والحاج عمر وأحمد صمدو... وإبراهيم أبو زرباي؟... إنها فقط بعض من أسماء أولئك المجاهدين المجهولين في تلك الأرض القصية الاستوائية العمياء والذين امتد كفاحهم الحضاري ــ الديني هناك حوالي ألف سنة. وكان من نتائجه الإسلام الإفريقي القائم اليوم على امتداد القارة من السنغال إلى جزر الواق الواق الإفريقية... (مدغسقر).

المعالم الأساسية للقصة بدأت أولاً على أيدي التجار منذ ألف ومائتي سنة. قوافلهم التي كانت تستقر حين تصل الأرض الزنجية ما بين ستة أشهر والسنة كانت تشكل ما يشبه المستوطنات الدائمة تقوم فيها على الفور، روابط تجارية ــ اجتماعية تعمل على المبيع والشراء والإئتمان والتجارة والمصاهرة. فإذا قويت أنشأت لنفسها مسجداً أو زاوية. وتصبح أشبه بالجزر المميزة مع الأيام ومركز الجذب والأسوة الحسنة للأهلين.

كانت هذه المستوطنات والروابط هي المسامير الأولى والطلائع التي ثبتت الحضارة العربية ــ الإسلامية في تلك الأصقاع. كما كانت المصابيح التي تجتذب مجموعات السكان وتدهشها بالمثل الطيب في العمل وتدعوها لعقيدة الإسلام...

وذات يوم منذ ألف سنة هبط أرض السنغال ونزل في جزيرة بالنهر، هناك شيخ مجاهد كره الفساد في قومه بالمغرب، وآللمته هزائم المسلمين الأولى في الأندلس، فأنشأ رباطاً للجهاد والدعوة. والتحق به الكثيرون من قومه العرب والبربر فانضووا تحت لوائه: أنه عبد اللّه بن ياسين أول المرابطين.. اللاجئون من إسبانيا وصلوا إليه يشاركونه الدعوة والجهاد. وأثمرت الحركة هناك: إسلام مملكة غانة ومملكة صنغاي... ودولة مالي وظهرت مدينة تمبكتو الإسلامية التي

ما دنستها كما قال المؤرخون «عبادة الأوثان ولا سجد على أديمها قط لغير الرحمن». فصارت المركز الديني والتجاري الأول لغرب القارة الإفريقية المسلمة.

واشترك في القصة بعد ذلك دعاة كبار كثيرون منهم محمد بن عبد الكريم المجيلي المساني الذي برز في (كانوا) وقت سقوط الأندلس حوالي سنة ١٥٠٠ وقبله أحمد التنجيري في دار فور ثم عثمان دنفديو في جماعة الفولا. بجانب هؤلاء كان المتطوعون للدعوة من طلاب العلم الذين يسافرون للبلاد الإسلامية ثم يرجعون، ومن الحجاج العائدين يشكلون جمهوراً واسعاً يتأجج بالحماسة لنشر دين الله ... وبرغم كل ما قد نأخذ على بعض الطرق الصوفية فقد قامت في تلك الأصقاع بالدور الضخم. مريدو أبي مدين شعيب الأندلسي وأتباع الطريقة القادرية، والمذهب الجزولي، وأنصار أحمد التيجاني بزواياهم وتنظيماتهم وطقوسهم الصوفية كانوا الأشكال التي أخذها الإسلام هناك ...

أهم من هذا كله أن الحضارة العربية الإسلامية دخلت من خلال ذلك كله إلى الغابة السوداء. دخل مع الإسلام بالتدريج موكب متكافل من الحضارة التي يمثلها هذا الدين: دخلت الوحدانية لتزيح الوثنيات وانتشرت مبادئ الأخوة والمساواة الإسلامية بين الشعوب. دخل القانون الشرعي والنظام والأمن بين الناس. ظهرت المدارس والعلم والكتابة. ذاعت اللغة العربية بين الجماهير الإفريقية، ومنع الرقيق، وقامت العمارة الإسلامية عن طريق المساجد وانتشرت عادات التعلم جنباً لجنب مع الإسلام والعربية، والطهارة والنظافة والملابس المحتشمة، في حين غابت الخمر واختفت الوحشية العمياء ... وبين هذا وذاك قامت دول إسلامية إفريقية شتى، نشأت، وبنت، وتقابلت، وتهادنت، وماتت، في تلك المجاهل ... وإنها لمجاهل بالنسبة إلينا فقط ولكنها التاريخ القومي الرائع هناك كما أنها في الوقت نفسه قصة الملحمة العربية

الإسلامية الرائعة في القارة السوداء!

هذه الملحمة السوداء لم تكتب بعد قصتها الرائعة. جرفتها أخبار الاستعمار منذ أواخر القرن الثامن عشر فهي ملامح ورسوم وآثار من يكشف عنها...

فهل لذلك أحد؟

« حدود الأرض »

لو عدنا الزمن القهقري ٥٠٠ سنة فقط وجئنا بأعظم علماء الأرض نسأله عن الأرض وحدودها، قاراتها، أبعادها، بحارها... لكان أطفال مدارسنا الابتدائية اليوم أكثر علماً، وصحة جواب، ودقة تصور، من جواب ذلك العالم...

أيدهشنا هذا؟ إن أرض البشر قبل ٥٠٠ سنة فقط كانت أقل من ثلث الأرض المعروفة اليوم بعشر مرات. وبحار البشر يومذاك كانت أقل من عشر البحار التي نعرف اليوم. ومع كل أولئك فإن ماأخذه العرب من المعلومات الجغرافية عن الأمم الأخرى، وخاصة الإغريق، في العصر الإسلامي الأول قبل ١٣، ١٤ قرناً كان أقل بكثير مما تركوه للناس بعد ثمانية قرون حين مالت الحضارة العربية الإسلامية إلى الخمول ومال الفكر العربي إلى العطالة العقيم...

عمر بن الخطاب كان أول من كتب إلى الآفاق يطلب من علمائها وصف البلاد التي لفها الفتح الإسلامي... ومنذ ذلك الوقت تعاون المجاهد والحاج أولاً على المعرفة الواسعة للأرض ثم انضم إليهما التاجر الإسلامي في القرن الثالث وأخيراً انضم الرحالون... خلال عدة قرون عرفوا بكثافة وعمق بلاد الإسلام، وبكثافة وعمق وصفوها في مكتبة جغرافية واسعة لم تسبق في أي حضارة. الكتب الجغرافية التي تركها العرب هي اليوم وثائق تاريخية للحياة البشرية والاقتصادية والاجتماعية في العصر الإسلامي. وبلاد الإسلام كانت مركز الدنيا ودولة الدنيا يومذاك. ومع أن عوامل كثيرة كانت تدعو للاقتصار

على معرفتها وحدها ... وماذا يهمهم وراءها ؟ ومع ذلك فقد انساحت الأقدام والعيون وراء الحدود الإسلامية . التجار والرحالة كانوا هم الرواد في هذا المجال . غير أن الاهتمام توجه بخاصة إلى الجنوب والجنوب الغربي من بلاد الإسلام « أي إلى إفريقية الشرقية والغربية وإلى الجنوب الشرقي » : إلى الهند وما وراء الهند من أرض الله : بلاد الملايو وآلاف الأرخبيلات من بعدها والصين ... أما الشمال فقلما اهتم به المسلمون ... أو حاولوا معرفته لماذا ؟

قد تكون علاقات العداء المستمرة مع الترك والمغول من جهة الشرق ، ومع الروم والغرب المسيحي من جهة الغرب هي السبب .

ومثل وجه الترك والمغول كان وجه الروم والغرب المسيحي الفرنجي . الحروب التي قادها الروم ، ثم الفرنجة ، باسم الحروب الصليبية ضد الإسلام في إسبانيا وصقلية والشرق العربي ، والتي استمرت أكثر من خمسة قرون هي نموذج هذه العلاقات ... حتى في عهود السلم كان الروم يحرمون العلاقة الحسنة مع العرب . وكان محرماً في البندقية مثلاً على التاجر الأوربي أن يتصل بربابنة السفن القادمة من الإسكندرية وصور ، والتي كان يرى صواريها من شرفات فندقه ... محرم عليه معها حتى تبادل الكلام !! وصورة الفرنجي عند العرب كانت سيئة . وحين زار الطرطوشي سفير خليفة الأندلس إمبراطور ألمانيا أدهشه بين ما أدهشه من التخلف الغربي القذارة في الناس . قال : « لن ترى أبداً أكثر منهم قذارة . إنهم لا ينظفون أنفسهم ولا يستحمون إلّا مرة أو مرتين في السنة بالماء البارد . وأما ثيابهم فإنهم لا يغسلونها بعد ارتدائها حتى تصبح خرقاً مهلهلة بالية ... » .

هكذا كان وجه الغرب بدوره كريهاً إلى العرب فأهملوه . حتى التجارة معه تركها العرب بأيدي اليهود الوسطاء فهم صلة الوصل ... ويسمون الكثير الأقمشة والبضائع بأسمائها العربية الأولى ...

وبعد ... فمنذ ٥٠٠ سنة فقط تغيرت الأرض غير الأرض ، والبحار غير

البحار ، والحضارة غير الحضارة ... تفجرت كل حدود الأرض والإنسان .
كان قد جاء عصر الاكتشافات الجغرافية .
وجاء عصر العزلة للعرب .

عبر التركستان ومنغوليا إلى الشمال الشرقي من بلاد الإسلام . كان وجه الترك والمغول الوجه البغيض إلى العرب . ومع أن شعوباً ضخمة من الترك دخلت الإسلام وخدمته وتبنت حضارته ، إلّا أن العلاقة مع تلك الأرض كانت دوماً علاقة حرب وعدوان . وهل ينسى التاريخ العربي الإسلامي غزوات جنكيز وهولاكو وتيمورلنك ؟... وإمعاناً في الإهمال قبل العرب عن ذلك الوجه حتى المعلومات الأسطورية . سبط ابن الجموزي قبل ٧٠٠ سنة كتب «أن رسول الخاقان ملك التتر تحدث عن بلاده بعجائب منها أن بالقرب منها ، قريباً من بلد يأجوج ومأجوج على البحر المحيط أقواماً ليس لهم رؤوس ... وأعينهم في مناكبهم . وإذا رأوا الناس هربوا . ومنها أن هناك تزرع في الأرض بذوراً فيتولد منها غنم . كما يولد دود القز الحرير فلا يعيش الخروف أكثر من شهرين أو ثلاثة ... مثل بقاء النبات في الأرض وأن هذه الغنم لا تتناسل ... » .

لكن ... ومع كل هذا العداء فقد ترك العرب بصماتهم القوية فيه ... لم يعبروه . ولكن عبرته تجارتهم ولغتهم إلى أوربا . لغته التجارية إلى اليوم تحمل أثر العرب الواضح : إنهم يستعملون كلمات أميرال وما هي إلّا أمير الماء ، والكابله وهي الحبل ، والبارك وهي البارجة ، ودار سنال أو أرسنال وترسنال ، وهي دار الصناعة لبناء السفن التي عادت إلينا هي نفسها عن طريق أوربا ، ثم العثمانيين ، بثوب فرنجي فنحن نسمي حوض بناء السفن الترسانة . وهم يتعاملون إلى اليوم بالشك وهو الصك العربي . ويتحدثون عن التعاريف (التعرفة) وهي رسوم بلدة طريف الأندلسية وعن الدوان (الجمرك) وهي الديوان العربية . وعن الماكازان وهي المخزن .

ونعود فنقول منذ ٥٠٠ سنة بدأت أرض الإنسان تأخذ حجمها

الحقيقي لدى الإنسان. بدأت تتضخم. على أنها مالبثت حين أخذت حدودها مداها الأوسع بالاكتشافات الجغرافية حتى عادت في هذا القرن إلى الصغر. أخذت تصغر وتصغر فهي ليست اليوم أكثر من ذرة أو أصغر من الذر في فضاء اللّه الأوسع ومجراته وثقوبه السوداء. أضحت قرية صغيرة!

أفليس في ذلك من آية لمن يتفكر؟ ولمن يدعون الجبروت؟

« قصة أخرى »

قصة أخرى من قصص الامتداد الحضاري العربي ــ الإسلامي وراء الوراء... هي قصة عبور العربية والإسلام إلى تلك القارة من الأرخبيلات والمعابد المذهبة والغابة الاستوائية... وأخلاط البشر من كل لون في جنوب شرقي آسيا...

إلى أرض بورما وملقة (الملايو) وسومطرة وجاوة إلى جزر سيليبس والفيليبين... إلى جزر واق الواق في بحر الصين والتي قد تعني اليابان...

إنها قصة اختراق حاجز المحيط الهندي إلى عالم المحيط الهادي ومداه الأقصى على الجهاد الأخرس ألف سنة أو تزيد.

ثلاثة أرباع هذه القصة مجهول ولعله سيبقى مجهولاً إلى الأبد فهو لم يدون بعد. ولعله لن يدون أبداً. مع أن معظمه جرى في القرون الستة الأخيرة ومع أن أبطاله يعدون بمئات الألوف إلّا أنهم ضاعوا على البحار والموج.

انسياح الحضارة العربية الإسلامية إلى غربي إفريقية كان ملحمة عبر الصحارى والبراري والغابة السوداء. أما هنا فالطرقات قد فتحت في قلب الموج وعلى اللجج البعيدة وبالمراكب تغدو ثقالاً وتعود ثقالاً...

والتوغل في إفريقية كان مشي الأشهر إلى الأرض المجاورة للعرب. أما هنا فإبحار السنين الطوال. إلى أبعاد الأبعاد وراء البحار. أن تدخل العروبة والإسلام إلى الهند فذلك أمر حققه العرب منذ القرن الأول للفتح. أما أن يتجاوز عالم الهند كله إلى عالم الهند الصينية ثم إلى العالم الأندونيسي ثم إلى أقصى حوض الأرخبيلات الأوسع فذلك هو الفتح المجهول الكبير!

صحيح أن القصة بدأت منذ العهد الإسلامي الأول لكنها لم تصبح عملية فتح حضاري، أي ديني ثقافي اجتماعي، إلَّا منذ حوالي ثمانمائة سنة. جماعات ثلاث عملت في هذا الميدان جنباً إلى جنب وإن يكن ذلك دون أي تخطيط مسبق. الإيمان وحده كان الدافع والقائد لها جميعاً. الجماعات الثلاث: أولها التجار العرب من اليمن وحضرموت وعمان والخليج مع مجموعة من مسلمي الهند. نجاحهم الرائع كان في كسب قلوب الناس. تعلموا لغتهم. انتحلوا عاداتهم تزوجوا منهم وقاموا بتحويلهم إلى الإسلام وتعليمهم العربية وحضارة العرب. أحد الإسبان الحاقدين قال سنة ١٦٠٠: «هؤلاء القباطنة القراصنة العرب يحملون معهم خيرات آسيا القصوى ويخلفون مكانها عقيدة محمد ويحولون إليها هذه النفوس ...».

ثاني الجماعات: من يسمون هنا بالحجى. وليسوا من الحجاج فقط ولكنهم يجمعون مع الحجاج القضاة والفقهاء والمتخرجين في الأرض الإسلامية بالعلم...

ثالث الجماعات: كبار المسلمين المحليين... الملوك والكبراء الذين ما يكادون يتحولون إلى الإسلام والعربية حتى يلتهبوا حماسة لنشر العقيدة في أوساطهم وشعوبهم... ولمعت من هؤلاء نجوم كبرى... البعد والجهل وتقادم الزمن أطفأ أنوارها عنا وعفا على الجهاد العنيف الذي بذلته.

ومن ذا الذي يعرف اليوم عبد اللّه عارف الذي دخل بالإسلام إلى سومطرة منذ حوالي ٨٠٠ سنة؟ ثم الشيخ إسماعيل بعده بمائة سنة ثم السلطان على مغايت شاه الذي نشره تماماً منذ ٤٥٠ سنة؟ ومن ذا الذي سيتحدث الآن عن ملك الملايو الذي تحول، وحول بلاده إلى الإسلام، منذ ٧٠٠ سنة بالضبط وتسمى بسلطان محمد شاه؟ أو من ذا الذي درس ذلك الزحام العنيف بين البوذية والإسلام العربي في منطقة سيام حيث تتجاور معابد الدينين اليوم. أو اهتم بملحمة دخول الإسلام إلى زابج أي جزيرة جاوا ذات

المائة والعشرين مليون مسلم الآن على يد الأمير المحلي حاجي بروا، ثم مولانا ملك إبراهيم منذ ما بين ٨٠٠ إلى ٦٠٠ سنة؟ أو حكاية الإسلام في بلاد ترنات على يد داتو ملا حسين؟ أو توغله أبعد من ذلك بكثير إلى جزيرة ملوكس بجهود العربي: الشيخ منصور قبل ٤٠٠ سنة أو خبر تلك السفينة المملوءة بالمشايخ التي سبقت القسيس إلى مملكة مكسر وكسبتها فوراً للإسلام في تلك الفترة نفسها؟ بينما كان داعية مسلم آخر يدعى شريف كابو بخسوان يكسب الفيليبين القصية القصية لهذه العقيدة الثائرة المناضلة هناك اليوم ...

إنها ملامح من الملحمة الكبرى المنسية ...

على أن أروع ما فيها أمران:

الأول: أنها كانت تجري والقوى العربية الإسلامية عندنا في منتهى الضعف والتخلخل، وكانت تجاهد دون أي سند سياسي. ومع ذلك فقد كانت تزاحم القوى الاستعمارية المتكالبة على تلك المنطقة كلها معاً من برتغاليين وإسبان ثم هولنديين وإنكليز. وتزاحمها الزحام العنيف. ومع أنها كانت تخسر المعركة السياسية إلّا أنها كانت تكسب باستمرار معركة العقيدة والروح. تكسب الناس.

أحد الثوار المسلمين منذ حوالي ٣٠٠ سنة الشيخ يوسف نقله الهولنديون سجين دولة إلى مستعمرة الكاب في إفريقية الجنوبية هو وعائلته وأنصاره. قبره هناك لا يزال المقام المقدس إلى اليوم.

الأمر الثاني: أن الإسلام وما واكبه من الحضارة العربية دخل من تلك الأصقاع أحياناً كثيرة إلى بلاد عريقة الحضارة. وذات ديانة قديمة ثابتة الأركان والكهنة. وهل البوذية الهندوكية بالقليلة؟ ومع ذلك فقد أزاحها الإزاحة القوية وحل حيثما توغل محلها ...

أليست الملحمة بالتي تستحق أعمق الإكبار؟

«تصحيح التاريخ»

في سنة ١٩٢٤ أي منذ حوالي نيف وسبعين سنة قدم طالب عربي شاب أطروحته للدكتوراه في الطب بجامعة فرايبورغ فكانت نوعاً من القنبلة هزت ما استقرت عليه المعرفة بتاريخ الطب أكثر من ثلاثة قرون قبل ذلك. كان المعروف أن سرفيتوس الإسباني كشف الدورة الدموية الصغرى في القرن السادس عشر وأن هارفي الإنكليزي كشف الدورة الدموية كلها في القرن السابع عشر.

وقال الشاب الدكتور الطهطاوي: إن أول من سفه آراء جالينوس وكشف الدورة الدموية الصغرى ليس لا سرفيتوس ولا هارفي ولكنه الطبيب العربي الذي سبق الاثنين بثلاثة قرون وأربعة قرون وهو: ابن نفيس ابن دمشق المولود سنة ١٢١٠ والذي أضحى طبيب المستشفى الناصري في القاهرة. وقامت الضجة المحمومة والمناقشات المتصلة وعاد العلماء المستشرقون إلى المخطوطات والنصوص من كتابات ابن نفيس فتبين الحق. وسلم الجميع بأن الكشف عربي. وأن صاحبه هو ابن نفيس وليس سيرفيتوس. هو الذي اكتشف دورة الدم في الشرايين الإكليلية وأن الدم يجري إلى الرئتين ليأخذ منهما الهواء وليس الغذاء وأن هناك اتصالاً بين الأوردة والشرايين وأن ليس في الشرايين أي هواء كما يدعي جالينوس وأن جدران الأوردة أسمك بكثير من جدران الشرايين في الرئتين. وأن ... وأن ...

ومنذ عشر سنوات تكررت القضية ذاتها في جامعة باريس ولكن في الرياضيات هذه المرة لا في الطب: وثم في الرياضيات نظرية معروفة باسم مثلث

باسكال . وهو الفيلسوف الرياضي الفرنسي المشهور . وتقدم شاب عربي . كان ما يزال يدرس في باريس ، يقول للعلماء : إن مثلث باسكال مسروق وقدم مخطوطاً في الجبر من تأليف أبي عمرو الكرجي البغدادي . وفوجئ العلماء بأن النظرية ليست وحدها المأخوذة عن الكرجي ولكن الشكل الهندسي المرافق لها هو نفسه بوضعه القائم بل حتى وبأحرفه ذاتها واضطر التعصب الوطني الفرنسي أن يرضخ ولكن من ذا الذي يغير حتى في كتب المدارس الثانوية اسم النظرية من مثلث باسكال إلى مثلث الكرجي ؟

ومنذ فترة وجيزة اكتشف باحث آخر مخطوطة رياضية عربية يعود تأليفها إلى القرن الحادي عشر . وفوجئ عند دراسة نظرياتها وإفراغها في القالب الرياضي الحديث أنه أمام نظريات الهندسة التحليلية التي يعزوها الغرب إلى الفيلسوف ديكارت من القرن السابع عشر . وبين هذا الفيلسوف وبين مؤلف ذلك المخطوط ست مائة سنة !

هل أقصد من هذا الحديث إلى القول المكرور : إننا سبقنا الغرب بهذا الأمر أو بذاك ؟ هذا الفخر الكسيح أقرب إلى عويل العجز منه إلى زهو المجد . وأنا احتقر مثل هذه المواقف . إنها لا تعني ، في أحسن الأحوال ، أكثر من أن خير مافينا هو الدفين في التراب ... وإنما قصدت إلى أن أقول إن الغرب قضى قروناً ينسج الأمجاد من حول ذاته ، يدعي كل مفخرة ، يصوغ لأنانياته ألف ثوب من الجلال . انتصاراته العسكرية والعلمية والاقتصادية والسياسية وسيطرته الاستعمارية أعطته قوة إضافية يدعي معها أمجاد الآخرين ويصدقه الآخرون . جاء وقت كان فيه تاريخ العالم كله يبدأ باليونان ، وينتهي بأوربا الحاضرة ، وكان العرق الأبيض يعتبر أن استخدام العروق الأخرى « رسالة » من رسالاته ... وأن ليس وراء البحر المتوسط سوى التخلف والهوان البشري ...

وقد بدأ هذا كله بالتغير منذ الحرب العالمية الأولى ثم دخل طور التحول بعد الحرب العالمية الثانية فلما كانت الستينات واستقلت أمم الأرض جميعاً

تقريباً انقلب النظام الفكري والسياسي والاقتصادي المفصل، في الأصل، على مقياس الغرب وقيم الغرب... كل أمة أضحت تفتش عن كيانها الإنساني الخاص تبحث عما قدمت في سوق الإنسانية من خير. تكتب التاريخ من وجهة نظرها. تغزو الآخرين برقصها الوطني. بغنائها الخاص. بمطرزاتها والملابس... واغتنت الإنسانية بألف ألف لون وألف ألف نغم وألف ألف فكر...

وذات يوم قبل سنوات، كان أحد الشباب العرب في مناقشة رسالته للدكتوراه وقد وصف فيها الصليبيين بأنهم برابرة. وثار الأساتذة المناقشون: إن الكلمة شتيمة ولا علمية وأجاب الشاب: فماذا تقولون أنتم في رسائلكم وفي كتبكم التي تدرسون في المدارس عن العرب؟ بعد اليوم ستكتب الشعوب الأخرى التاريخ من وجهة نظرها بعد أن طال ما كتبتموه من وجهة نظركم وستسمعون بعد اليوم الكثير مما تكرهون كما قلتم من قبل الكثير مما تحبون...

بلى! إن تاريخ العالم كله، التاريخ المعروف على الأقل، سوف يعاد فيه النظر وسوف يكتب من جديد بأيدي مختلف الأمم ليعود إلى التوازن.

ولتأخذ كل أمة حقها ومكانها الحقيقي...

إن التراث الإنساني حصيلة مشتركة أسهم فيها كل بني الإنسان!

ولكن من ذا الذي يطامن من أنانية الغرب؟

« انتقال المشعل »

حديث اليوم ، هو الحديث الأخير عن انتقال المشعل ... انتقال القيادة الحضارية في الدنيا من الأيدي العربية إلى الأيدي الغربية ...

كان ذلك منذ حوالي ٥٠٠ سنة .

وكان الغرب الأوربي قد خرج من حرب طويلة طويلة مع العالم العربي الإسلامي استمرت ٥٠٠ سنة تقريباً كسب في نهايتها الأندلس بعد أن كان كسب إيطاليا وصقلية قبل ذلك بكثير . ولكنه خسر معركة الشرق العربي . الحروب الصليبية التي قادها إلى هذه البقاع مائتي سنة خرج منها صفر اليدين ...

ونبتت في الغرب خلال تلك الحروب بعد فشلها المرير فكرة الحرب الاقتصادية للعالم العربي الإسلامي .

كتاب الأرض المقدسة الذي كتبه صاحبه مارينو سانوتو في مطالع القرن الرابع عشر إنما كتب بهذا الهدف . صاحبه رسم فيه ، نقلاً عن الخرائط العربية ، خريطة يوضح بها فكرته الرامية إلى حصار العالم الإسلامي حصاراً اقتصادياً يستخدم في حرب صليبية جديدة ... ضد العرب والمسلمين . حمل هذه الفكرة خاصة أولئك الملاحون والتجار الأوربيون الذين عرفوا مكاسب التجارة العالمية مع العرب خلال تلك الحروب . لقد اغتنوا الغنى الواسع وطمعوا بالمزيد . صاروا يحلمون بأن يصلوا إلى منابع تلك البضائع الثمينة التي يحملها التاجر العربي مما وراء بلاد العرب ، من الهند والصين . ولكن كل الطرق كانت حتى ذلك العصر ، تحت يد العرب ... والمعلومات الجغرافية المتوافرة لا تعطي إلَّا أضعف الأمل بالمرور حول الأرض العربية إلى ما وراءها ...

وفي أواخر القرن الخامس عشر بدأت المحاولات ... وفي وقت واحد وفي عدة اتجاهات :

ــ محاولة اتجهت في بحر الظلمات إلى الغرب تريد الوصول إلى الشرق وإلى الهند فلما وقعت صدفة على القارة الأمريكية حسبتها الهند وطارت بها فرحاً. تلك هي محاولة كريستوف كولومب.

ــ محاولة رافقت الساحل الإفريقي الغربي حتى رأس الرجاء الصالح ثم استدارت حوله حتى وصلت سواحل إفريقية الشرقية وزنجبار ... مع فاسكودي غاما ... وتلكأت هناك حائرة ... قبل أن تصل الهند وتقطع تجارة العرب.

ــ محاولة ثالثة سرية حاولت الاتصال، عبر بلاد العرب نفسها، مع مملكة مسيحية غامضة الأخبار موجودة وراء هذه البلاد ... والأوربيون لم يكونوا يعرفون عن هذه المملكة شيئاً. ولكنهم يسمونها مملكة القديس يوحنا ... كل ما كانوا يعرفون عنها أنها في مكان ما من الأرض وراء العرب. ولعلها في الصين أو الهند ... وما كانوا يقصدون سوى الحبشة ... صاحب هذه المحاولة اسمه كوفلها وقد أرسله ملك البرتغال ...

وإذا كانت المحاولة الأولى لم تكشف الهند بلد الأفاويه والبهار فإنها كشفت لأوربا ما هو أثمن بكثير : وهو القارة الأمريكية المملوءة يومذاك بالذهب يتدفق مع المراكب العائدة ...

ولم يستفد البرتغاليون من المحاولة الثالثة ... فدون ذلك اختراق بلاد العرب ولكن المحاولة الثانية التي وصلت زنجبار كانت هي الكارثة على التجارة العربية الإسلامية وعلى الحضارة ...

ألا يجب أن نعترف هنا أن هذه الحضارة كانت قد ودعت منذ زمن عصر الإبداع ودخلت فترة الجمود والتقليد؟ بلى؟! ولقد كان ممكناً أن تتحقق لها نهضة جديدة ظهرت أمائرها في أكثر من ظاهرة لو لا أن جاءتها الضربة

القاضية التي عزلت بلاد العرب عن طريق التجارة العالمية عدة قرون ، وطوقتها بالعداء . وضعت القوى الأوربية النامية أمامها من الشمـال ووراءهـا من الجنوب . حتى في ذلك العصر أدرك الناس فداحة الكارثة . أحد المؤرخين وصفها بقوله : « ومن الحوادث الفوادح النوادر دخول البرتغال اللعين ، من طايفة الفرنج إلى ديار الهند ... » قطعوا رزق الناس ... وما كان أولئك الذين وصلوا من الغرب إلى ساحل إفريقية الشرقية أن يصلوا الهند لو لا أن استعانوا بملاح مسلم من كوجرات بالهند يرشدهم إلى طريق الهند . إنه ليس ابن ماجد المشهور إنهم يسمونه المعلم قانا أو قنقه ...

أدهشهم بمعلوماته البحرية وأدواته المربعة والمثلثة لرصد الشمس والنجوم وخرائطه الملاحية الدقيقة واسطرلابه الكبير المعدني ... وأوصلهم إلى الهند ... منذ ذلك اليوم أخذت التجارة العالمية بين الشرق والغرب تطوف حول إفريقية ولا تمر بالعرب ... وبدأت عزلة هذه البلاد عن العالم الذي ينمو ويتطور في الغرب ... وأحكم الطوق حولها بين فكي كماشة وبدأ العدوان الاستعماري الذي استمر أربعة قرون .

هل انتهت عملية التطويق ؟

الواقع أن التطويق الأوربي الذي جاء بلاد العرب والمسلمين من الجنوب وقطع عنها التجارة العالمية قد واكبه وتبعه تطويق آخر من الشمال الشرقي أيضاً ... منذ القرن السادس عشر في أواخره بدأ زحف روسيا بدورها نحو الشرق ويوم وصلت عبر السهوب السيبيرية البعيدة إلى فلاديفوستك على بحر اليابان كان الشمال كله قد أغلق على البلاد العربية والإسلامية كما أغلق الجنوب كله ... وكما تعرضت هذه البلاد للاستعمار الغربي ، كان قياصرة الروس يستعمرون ما في جوارهم منها وخاصة بلاد تركستان المسلمة ... هذا الطوق المحكم هو الذي أسقط المشعل من يد العرب ؟ أليست نهضة العرب اليوم محاولة لرفعه من جديد ؟

الفهرس

العرب في التاريخ/ شاكر مصطفى . ــ دمشق : دار طلاس، ١٩٩٦ . ــ
١٢٧ص؛ ٢٠ سم . ــ (سلسلة أوراق من التاريخ؛ ٦)

١ ــ ٩٥٦م ص ط ع ٢ ــ العنوان ٣ ــ مصطفى ٤ ــ
السلسلة

مكتبة الأسد

رقم الإيداع ــ ١٩٩٥/١٠/١٥٩٤   رقم الاصدار ٦٨٥

رقم : ٢٥٠٨٠
تاريخ : ١٩٩٥/٢/١٢

هذه السلسلة

هي مجرد أوراق متناثرة، كأوراق الخريف لا يجمعها إلا أنَّ من تتحدث عنهم مرُّوا في خاطر الزمن. ثم طواهم الغيب طيَّ السِّجلِّ للكتب. وهي لا تزعم أنها تحمل عِلْماً للمختصين فمدى أطول أوراقها صفحات ثلاث أو أربع. ولا أنها تجترح كشوفاً وأسراراً ما سبقها إليها سابق. فكلها سِيَرٌ لطيوف عبرت الماضي وتركت وراءها الغبار. لكنها تزعم، بلى، إنها طرائف من هنا وهناك وقصص شاردة هي حصيلة عمر من الدراسات ذابت فيها العيون وضاعت على أحرفها الليالي والأقمار وفيها ما فيها من الزاد الثقافي، كَرْماً على درب.

ولقد تكون كتبت ليأنس بها من يحب المعرفة التاريخية أو من يشدو بعض الراحة هرباً إلى عالم الآخرين. لكنها من وراء هذا وذاك تحمل رسالة، إنها دعوة للقراءة السريعة المفيدة. ففي عالم السرعة وزحام المشاغل والوجبات الخفيفة. هذه وجبات ثقافية أسرع وأخف وأمتع!

أتراها تنجح في حمل هذه الرسالة؟

